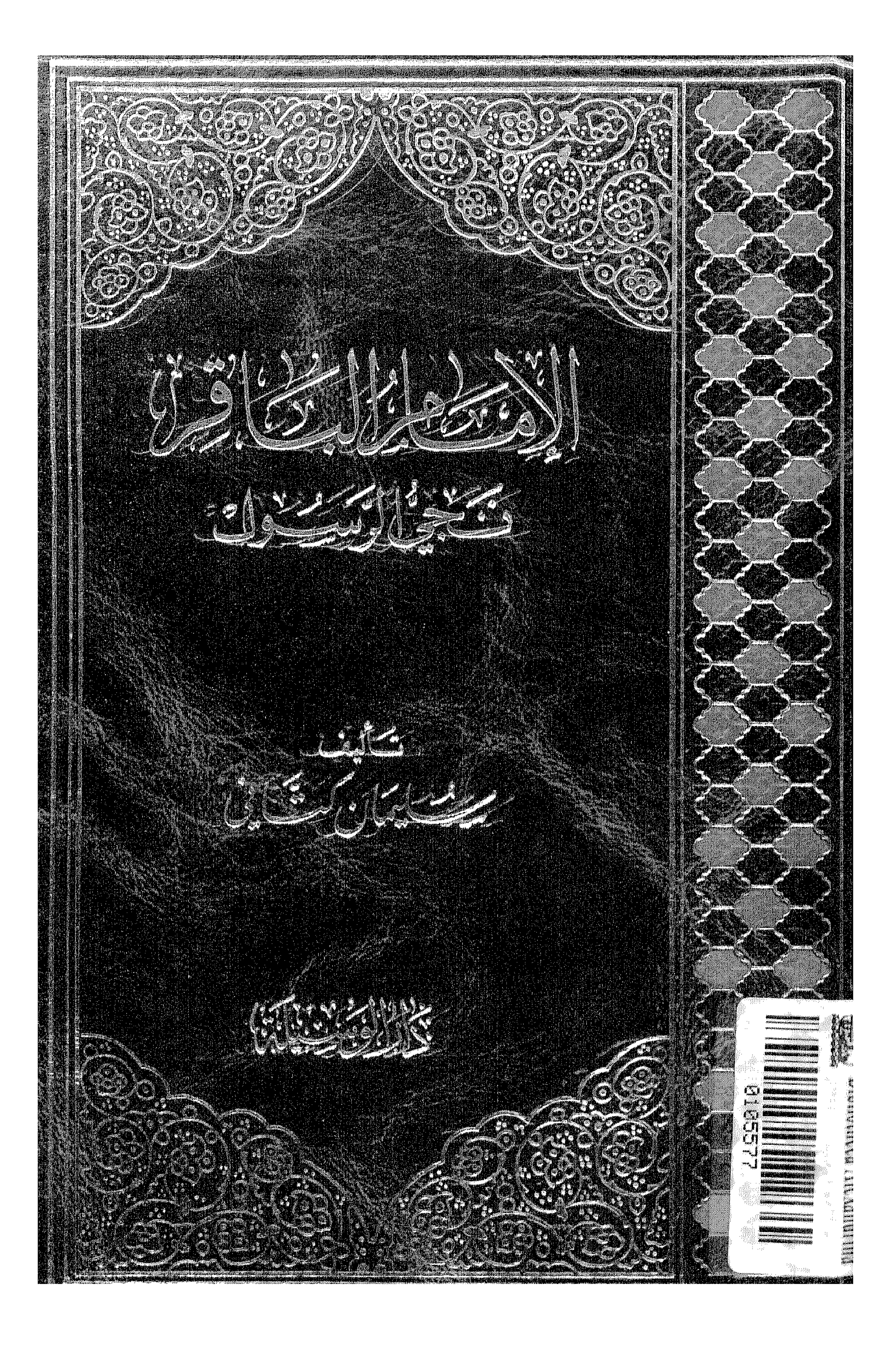

الإمام الباقر
نجي الرسول
تأليف
سليمان كتاني
0105577







الإمام الباقر
نجيّ الرسول



الإمام الباقر
نجيّ الرسول

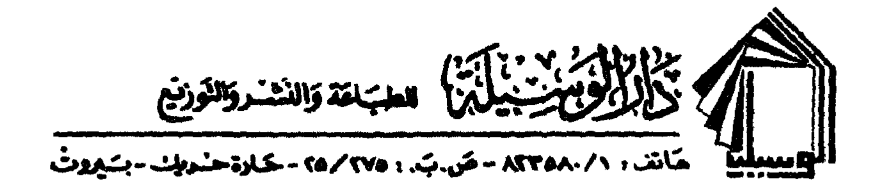
سليمان كتاني

دار الوسيلة
للطباعة والنشر والتوزيع

١٤١٥/٦ هـ ـ ١٩٩/٥

الطبعة الأولى

الكتاب الذي حاز المرتبة الاولى في مسابقة التأليف التي أجرتها
مكتبة اهل البيت في النبي شيت





والحمد الله، والصلاة والسلام على محمد وآله

بعد كربلاء:

لقد ظن الأمويون، بما فيهم الممسكون منهم بزمام الحكم، وسائر من يدور في فلكهم: أن استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، وخيرة أهل بيته، وصفوة أصحابه في كربلاء، عام ٦١ للهجرة، سوف يطوي، أو هو قد طوى بالفعل صفحة تاريخ البيت الهاشمي، الذي أفل نجمه، وخبت ناره، وانقطع صوته وصيته، حتى أكل الدهر عليه وشرب. وقد حلت محلها صفحة تاريخ البيت الأموي، فليكتب فيها أهل هذا البيت وأعوانهم وأزلامهم ما شاؤا فلم يعد ثمة من يراقب أو يحاسب.

ليسجل لهم التاريخ سجل عنفوان الجبارين، وكل زهو المترفين، وخيلاء العتاة والمتسلطين. وليكتب على كل جبين أولئك المستضعفين، الفقراء، السذج منهم والبسطاء ما شاء من ألم وشقاء، ومن حرمان وبلاء، واضطهاد وعناء.

فقد أصبحت الدنيا مستوسقة لبني عبد شمس، والأمور متسقة، ولم يعد للبيت الهاشمي، وخصوصاً آل أبي طالب، أي دور فاعل في نطاق التحدي لحكم هؤلاء الجبارين.

هكذا ظنوا، أو هكذا خيّل لهم.

قالوا لحمامة سعدهم (النحس):

خـلالـك الجـو فبيضـي واصفـري ونقّـري مـا شئـت أن تنقّـري

لكن ظن الأمويين هذا لم يقعدهم عن مواصلة التصدي والتعدي، بسبب وبدون سبب، على رموز البيت الهاشمي، بهدف أن تبقى الأمة صغيرها وكبيرها مستشعرة الرهبة من أن تحدث نفسها بأي تقرّب، أو مراودة، ولو على مستوى الحياة العادية مع أهل هذا البيت، الرمز، والمثل الأعلى.

ومرت فترة مريرة وكريهة أمكن للأمويين أن يلمسوا خلالها لدى رموز البيت العلوي عزوفاً عن مناهضة حكمهم بأسلوب العنف والحدة في هذه الفترة على الأقل ـ فلم يجدوا بعد أي مبرر لمواصلة ذلك المستوى من القسوة الظاهرة، التي كانت تعود عليهم بسلبيات كبيرة، كانوا يحبون تحاشيها والتخلص منها. ووجدوا أن بامكانهم إفساح المجال لأئمة أهل البيت ليعيشوا حياة عادية ورتيبة، ولكن في نطاق الرقابة القوية والفاعلة. ولينصرفوا لمتابعة صراعاتهم مع الآخرين من خوارج وغيرهم... وهكذا كان.

مسيرة الانحراف:

وفي المجال الآخر: كان الأمويون يملكون حوافز قوية، واندفاعاً طاغياً لقيادة مسيرة الإنحراف. وكانت لديهم كل القدرات التي تهيء لهم الفرصة لقيادة هذه المسيرة، وتغذيتها، وتنشئتها، وحمايتها بالقوة العسكرية، والسياسية، والسلطوية، والترويج لها اعلامياً، بل وحتى التنظير لها، والتلبيس على الناس، وخداعهم، بها فكرياً وعقيدياً، إذا لزم الأمر.

وكان لهذه المسيرة ما يكفيها أيضاً من الدوافع الغريزية، والشهوية، ومن الطموحات الباطلة واللامشروعة لدى جمهور لم يتربَّ تربية صالحة،

ولم يمتلك من الوعي العقيدي، والشرعي ما يحصنه من الاندفاع بقوة طاغية في هذا الاتجاه أو ذاك، دون أي شعور بالمسؤولية، أو بتأنيب الضمير، ودون أن يكون لديه أية كوابح أخلاقية، أو رقابة وجدانية مؤثرة.

وذلك لأنَّ دعوة بني أمية وكل أطروحتهم هي الدنيا، وكل ما فيها من ملذات، وزبارج وبهارج، تروق لهذا الإنسان وتهيمن على مشاعره.

سياسات موروثة:

ومما تهيَّأ لبني أمية أن يحققوا مآربهم، ما ورثوه عن سلفهم من سياسات بدأت تؤتي ثمارها، وتظهر تبعاتها وآثارها الكبيرة والخطيرة، على الحياة الفكرية والثقافية، والعقيدية للناس، وعلى كل الواقع السياسي، والاجتماعي، والتربوي، وغيره.

هذه السياسات التي كان أهمها إقصاء الإسلام، وكل ما هو شرع ودين عن حياة الناس، فكان أن انحسرت كل معالمه وآثاره الحقيقية عن مختلف المواضع والمواقع على امتداد مساحة الدوة الإسلامية، في طول البلاد وعرضها.

فقد ورثوا عن سلفهم سياسات بدأوها منذ وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، مثل:

المنع من السؤال عن معاني القرآن.

والمنع عن كتابة ورواية حديث وسيرة الرسول.

ومنع كبار الصحابة من مغادرة المدينة المنورة، خوفاً من نشر العلم، ومن أمور أخرى.

بل ومنع الناس من العمل بالسنن النبوية، حتى إنهم كانوا لا يطيقون أن يروا الناس يكثرون من الصلاة في المسجد أو من الطواف حول

الكعبة الشريفة، فمنعوهم من ذلك إلا من الشيء اليسير.

وفي المقابل أفسحوا المجال أمام مسلمة أهل الكتاب والقصاصين المتأثرين بهم ليثقفوا الناس، بترهاتهم من الاسرائيليات التي كانوا يمزجونها بكثيرٍ من الخيالات الباطلة والزائفة.

هذا بالإضافة إلى محاولات متكررة للحط من شأن النبي (ص) نفسه، والتأثير على قداسته في النفوس.

مع كثير من الأصرار على تضخيم مقام الخلافة والخليفة إلى حد تفضيل الخليفة على جميع الأنبياء والمرسلين.

ثم اعطاؤهم الحاكم حق التشريع والتلاعب بأحكام الله سبحانه وتلبيس أحكام الجاهلية بلباس الدين والإسلام.

ناهيك عن امعانهم الوقح في سياسات التمييز العنصري والفئوي، والقبلي.

إلى غير ذلك مما لا مجال لتتبعه واستقصائه.

نتائج وآثار:

وقد كانت لهذه السياسات نتائج مرة، حيث تمكنت من تدمير البنية الفكرية، والعقيدية، الثقافية والتربوية الإسلامية بصورة عامة تدميراً كاملاً، أو كادت. وأصبحت الأمة تعيش غربة حقيقية عن الإسلام وعن القرآن وأحكامه، وعن رسومه وأعلامه. وعن عهد إمامة.

وفي عهد الإمام الباقر عليه السلام، كان قد مضى على هذه السياسات حوالي قرنٍ من الزمن. طويت فيه أربعة أجيال من الناس لينشأ جيل جديد أشد إيغالاً في البعد عن هذا الدين. وعن نبيه الكريم، وقرآنه العظيم.

وإذا كان علي عليه السلام الذي استشهد في سنة أربعين للهجرة يقول: لم يبق من الإسلام إلا اسمه، ومن الدين إلا رسمه.

وإذا كان حذيفة بن اليمان، الذي توفي قبل علي عليه السلام بحوالي خمس سنوات يقول: فابتلينا حتى لا يستطيع الرجل منا أن يصلي إلا سرا. فكيف تكون الحال في سنة مئة أو بعدها؟! إن التاريخ يجيبنا على هذا السؤال فيحدثنا: أن بني هاشم إلى أن مضت سبع سنين من إمامة الباقر ما كانوا يعرفون كيف يصلون، ولا كيف يحجون.

مع أن الهاشميين كانوا أقرب الناس إلى مصدر المعرفة والعلم بالدين والصلاة هي الواجب التي يمارسه كل مسلم خمس مرات على الأقل في كل يوم. فإذا كان هؤلاء يجهلون حتى أبسط الأحكام، فكيف تكون حال غيرهم ممن يعيشون في أطراف الدولة الإسلامية، وليس لهم تاريخ في الإسلام، ولا شأن علمي في أمور الدين والشريعة.

وإذا كان الجهل قد انتهى بهم إلى هذا المستوى، فكيف بالمسائل التي يقل التعرض لها، أو الابتلاء بها؟!.

الانجاز الحقيقي للإمام الباقر عليه السلام:

وقد كان الانجاز الكبير، والمهم جداً للإمام الباقر عليه السلام هو في هذا المجال بالذات. فإنه قد بقر العلم لهذه الأمة، ولم يترك باباً من أبواب الفقه والشريعة، ولا مجالاً في شتى مناحي المعارف. ولا شأناً من شؤون العقيدة، والأخلاق، والتربية، والسياسة، والسلوك، وغير ذلك مما تحتاج إليه الأمة إلا وسجل فيه وفي أدق تفاصيله وجزئياته النظرية والتطبيقية كلمة الإسلام الهادفة، والمرشدة إلى طريق الحق، والخير، والهدى.

ثم جاء بعده ولده الإمام الصادق البار الأمين عليه السلام ليكمل

المسيرة ويتابع رسم الطريق، لكل الأجيال، وعلى امتداد العصور، والدهور.

وكان الإمام السجاد قبلها هو الذي استطاع بسياسته الفضلى، وبطريقته المثلى أن يهيء المناخ المناسب لنشوء مدرستها سيما التي استقطبت المئات من رواد العلم بل الآلاف. إذ من البديهي: أن هذا الامتداد القوي والعميق لم يكن ليحصل لو لم يسبقه تخطيط واعداد عملي واسع في نطاق ترسيخ قواعد فكرية واجتماعية وخلقية أو الاستفادة من ظروف سياسية أصبحت مؤاتية فأرسيت القاعدة العقيدية والفكرية الصلبة، التي قام عليها ذلك البناء الشامخ لمدرسة استطاعت أن تلهب في العالم الإسلامي، جذوة طالما عمل الحكام والمتسلطون على اطفائها وقد تركت بصماتها على كل قضية، وفي كل موضع وموقع، في شتى مجالات الحياة.

هذا الكتاب:

أما هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء الكريم «الإمام الباقر، نجيّ الرسول» تأليف الأديب الكبير، الفذ الأستاذ سليمان كتاني. فقد وفقت لقراءة بعض فصوله، فوجدته الكتاب الزاخر بالصور الحية، الغني باللفتات واللمحات، الذي يختزن في ايحاءاته القوية قدرة على النفوذ إلى أعماق المشاعر والخواطر، شاءت ذلك أم أبت.

ولا غرو فإن مؤلفه أديب بارع محلق، استطاع بجرأته، وباتزانه أن يقتحم الساحة بوعي وثبات، وشموخ وشمم، ليمارس حريته في الفكر وفي القول، وفق قناعاته الراسخة، رغم كل ما يعترض طريقه من أشواك تلامس قدميه، لتؤذي روحه وترهق مشاعره.

إنه الرجل الذي اعتصر الفكرة في الكلمة، لتتقاطر منها فتكون

العذب الزلال الصافي، الذي يأرج طيباً، ويتفاوح عطراً، ويتماوج نقاءً دون أن يفقد أسلوبه قوته ورصانته وأصالته. وصفاءه كذلك.

إن هذا الكتاب ليس تاريخاً لشخص، بل هو استشراف عام لواقع آمة، من خلال إنسانٍ عاش قضاياها، ووعاها بقلبه، وأحس بما تعانيه من نصب ووصب، بروحه، وبأعمق مشاعره. فانطلق ليبلسم جراحها، ويداوي كلومها، ويبث فيها روح الحياة، ويزرع فيها بذور الخير والعطاء في عمق وجدانها، وفي صفوة وخالص وجودها.

إنه الإمام الباقر، باقر علوم الأولين والآخرين، صلوات وسلامه عليه.

٧/ج/٢/١٤١٦ هـ. ق.
٣١/ تشرين أول سنة ١٩٩٥ م. ش.

جعفر مرتضى العاملي



إلى مكتبة أهل البيت العامة في النبي شيت

نعم النداء نداؤكم إلى تناول حياة وسيرة الإمام الباقر بدراسة تظهر كم هو جليل في الحقل العلمي الذي رهن عمره كله في خدمته وتركيزه أساساً لكل تقدم وفلاح تنشدهما الأمة العربية.

الحق يقال أن الإمام الباقر كان تصميماً بالغ الأهمية بنقل الأمة، بما فيها الإمامة، إلى حيّز من الحركة الفاعلة، والتي هي وحدها الناقلة المجتمع - برّمته - إلى الفهم، والصواب، والتحقيق. أن العقيدة الإسلامية، بكل ما فيها من حق، وخير، وتبشير بمعروف، هي التي تشدد على طلاب العلم يشرحها طاقات هداية، ويعمقها - في الحجى - نوراً، ويرسخها سجايا.

ستكون سيرة الإمام - إذ تتوضح ملامحها وأهدافها - معبرة عن العقيدة بالذات، وهي التي تتطلبون أنتم تخصيص دورة عنها تكون مضمومة إلى العمل المطلوب. إن السيرة والدورة هما في انضمام يشمل كامل حياة الإمام، فإذما نتوفّق في تظهير السيرة، تكنْ قد أتينا - ضمناً - على الدورة المطلوبة، والسيرة المنشودة.

أرجو أن أكون قد لبيت نداءكم الكريم بكتاب جديد عن الإمام المالىء حيزاً وسيعاً من بالي، وعساها مكتبتكم العامة تمتلىء بما هو نفيس من سيرة الإمام، كما وأن مدينتكم الصغيرة النبي شيت تستحق أن تجمع

إلى موائدها كل المشتاقين إلى ترويض النفس بالقراءات الغنية، واقبلوا شكراً صادقاً مع مؤلفي الجديد وعنوانه: الإمام الباقر نجيّ الرسول.

بكل اخلاص

سليمان كتاني

الكلمة الأولى

أيها الإمام الباقر يا نجيَّ الرسول

أيها البحار المدعوُّ إلى الغوص الكبير.

من أنت واقفاً على شاطىء ممدود؟.

تأخذ اليمّ بجفنين غارقين في نصف نعاس، فوق عينين غائرتين في ضجيجٍ من مدى!!! هل أنت تستشرف أعماق اللجج، بقدمين حافيتين مغروزتين في حيِّز من رمل؟ بينما هي اللجج أبعاد غائراتٌ، تعلو بها وتهبط محاملُ الموج! أم إنك الواقف المطرق، تتبصَّرُ بحوملات الأثقال، بكَشحٍ ضامرٍ مركوزٍ فوق ساقين من وصب؟ إنما الأثقال كالجبال الراسيات، تتماسك بها مجادل الماء من الأعلى إلى الأسفل، في عملية من توحيد ادراج المتون بأعماق السكون!.

ولكنك أنت المستشرف وإن تكن مطرق الرأس ومغمض العينين من دون أن توهن ومن دون أن تهاب، وأنت المتبصرُ المتبصر، ولن تدهى بارتياب!.

فالخطُّ خطُّك مبنيّاً على مقالب الأدراج، ليس له إلا التقصي عن كلِّ بابٍ تعرقل الضوء عنه غلطة المزلاج! فالأبواب ـ في الشرفات الزاهية ـ هي في انفتاحاتها على المطلات الرخيَّة، تحمل النور إلى أرجاء القصور،

ولا تحرمها من دعابات الصبَّا ومناجياته الندية!.

إنها الأبواب المحكمة في تركيز قواعدها على المدرجين! تلَبي في مدرجها الأول ـ انفتاحاً على تموجات النور، وانعطافات النسيم، وتستعصي انقفالاً ـ في مدرجها.

مدرجها الثاني ـ عندما تلجُّ عليها الغضبتان: غضبة الاعصار، وغضبة اللص في ادلاجه المارق الخارج من عب شيطان.

هنيئاً لك أيها النجيُّ البحّارُ خطٌّ عريض شددت العزم منه في الغوص المقعَّر، إنه الخط المجدول في مضامين الانضباط، وقعت عليك الآن مجالاته في مدى الغرف والجمع والتفجير، وهكذا رحت تبقر الأرض في سبيل استخراج كنوزها المتسترات، ورحت تشقُّ مياه اليمّ تكشيفاً عن الدر الهاجع في قعر العباب، وكذلك الجو فوق رأسك، وهو الوسيع بمهابة ربّك الأعلى من كل علّو، والأجدى من أيِّ صواب، فإنك رحت إليه ـ تقياً، تقياً ـ تفتِّقُ تحت كرسيّ ملكوته آياتٍ وآيات، جمعها في قرآنه من فيض ربه في الرحاب، نبيُّك الكريم الذي هو جدُّك البعيد المرامي والعزيز الصفات، لتكون قوتاً لأمته الغرثى، ولكل أمم الأرض جمعاء، يوم تسمو بها الآيات من حضيض الذل، والجهل، والحيف إلى الجنان السموات.

وخطك العريض، يا حلقة في الخط العريض، هو من أتقى وأنقى وأبقى ما انشدَّ في عرض الخطوط، فهو تمثيل الصيانة، والحصانة، والمتانة في خطٍ يرّسخه العرض كي يُشرقَ به طول الامتداد.

جدان لك يا ابن زين العابدين، سهرا ليلاً عريضاً لا يقاس بالسنين، على ضوء الرسالة المنزَلّة من خلف حلقات السنين، وهي الوحيدة التي وجداها تجمع الأمة إلى حقيقة الوجدان.... وما كاد يطلع عليهما فجر السهر، حتى كانت بين أكفهما خيوط الزنار مجدولةً على خصر أمةٍ تعبت كثيراً من لهاث الهجير!.

ليس الزنار يا سيدي المصداق، وأنت ربطة فيه، إلا حبل الإمامة، إنه الحبل المفتول على مغزل الرسالة، في كل نسلة منه حرف من روح آية. . . . أمَّا المراس، وأما المرانُ المشتقُّ من لحظات القراءة، فإنهما في حقيقة الضمِّ إلى رجاحة الرهان؛ فالإمامة تعب آخر في حقيقة السهر المجدي لنقل الخط العريض المكثف إلى امتدادٍ مثمر، تنبض به خفقات الصدور ـ وإنها الإمامة في لقاحات الوعي، تكسبها الممارسات علماً جديداً، وسهراً عتيداً، من أجل دفع الأمة ـ بالإنسان ـ إلى يقظات وسيعة، لا يحققها إلا العلم، والفهم، وصدق الرشاد، وإنها الرسالة ـ جهدٌ جليلٌ وسديد ـ تتماسك بها الأمة وتبني بها خلوداً مجتمعياً كريماً تتمتّن به بنية الإنسان.

وإنها الإمامة بتحديدها الحصري، وتركيزها البنيوي، وتسديدها المعنوي، فإن الزمان أعجز من أن يحصي لها النبضات ـ أو بالأحرى المبتكرات ـ لأنها اكتمال المجتمع في الفرد، وانبثاق الفرد من حفيظة الأمة التي هي مجتمعٌ حيٌّ ومتكامل، تعززه الرسالة بالعلم الصحيح، والصدق الوحيد الصحيح. . . كل ذلك، في مطلق شموله، هو تبشيرُ وعزمُ الرسالة في تحقيقها منهجها العظيم، ليكون الإنسان متيناً في حضن الحياة الكريم.

إنها الصفات، والمميّزات، والانجازات في مجمع التجريد سيقوم بها إمامٌ بعد إمام، في منطلق التمثيل والتحديد، وإماماً عن إمام ستتم لها ـ في المجتمع ـ روعة الترسيخ، وروعة التركيز. . . وعندئذٍ، فالأمة كلها وحدة إيمان، ووحدة حق، ووحدة اخراج.

لن يكون الزمن الآتي وقفاً على قرعات الثواني على عقارب الساعات، إنما يكون رهناً بلمسات النهى، تختلجُ بها أجنّةُ الأرحام، فتلد أجيالاً جديدة، وسَّع لها العلم جنبات الحق، وجنبات الخير، وجنبات

الشمم! ستكون الصفات الكريمة هذه حميميَّة في رزم الشمائل، لأن المعنيين بالتعهد الرصين، يتولون زرعها في خلايا النفوس، وفي طويات الضمائر.

ذلك هو الخط المرسوم في خلوات الريادة، أصابك منه أيها الإمام الباقر سهم بهي؛ فأنت للعلم السني، تفتش عنه في مخابئه، حتى يتكثَّف ويَتَفَجَّرَ، وهو وسيع في حقول الامتياز، تحتاجه الأمة كيفما اتجهت بها الخطوات، ومن دون التحامه فيها، لا قرار لها ولا ثبات، فهي بحاجة إليه، شرط أن يكون نظيفاً من كذبٍ ورياء، وهكذا كان لك أن تصدق: في الحديث، وفي الفقه، وفي نباهة التفسير، وأن تحفظ الآيات الكريمة سناداً لك في قولة الحق وإيقاظ الضمير؛ أما العلم الآخر، فإنك سعيت إليه تجمعُه من حيث نامت عليه الظنون: فالكيمياء، والفيزياء، والطبابة، والحساب، وكل الحواشي الرياضية والهندسية فإنها المتوافرة في خزائن جدودك الأعلين، تنام على تمددات بكر، تفاعل بها آباؤك وأجدادك الأقدمون. انهم ـ بزخمها الهندسي ـ العلمي الفاعل، خططوا وبنوا بيوتهم، وقصورهم، وشوارع مدنهم، وصناعاتهم، وزراعاتهم. . . . فكانت لهم ـ على سبيل المثال ـ بابل، ونينوى، وشنعار، والشام، ومكة، والكعبة المكرمة، وسد مأرب، وقصر الخورنق، والحدائق المعلقة. . . ولقد كان لهم أن نظفوا الأرض ما بين النهرين ـ دجلة والفرات ـ من وحول الطمي الخانق، كما حرروا ـ في ما بعد ـ أرض مصر من طمي النيل ـ وكان لهم ـ على سبيل التذكير أن نقلوا إلى أثينا، وروما، وجندبسابور، ما علم الغير هناك تركيز الحضارات، اقتداءً بما حققه العلم، والفن، والأسبقية المتحضرة في دنيا سومر، وكامل البقاعات العربية المصطفَّة على عرض التخوم. ليست زهيدةً أيها الإمام الباقر حصة لك تقوم بها في سبيل جمع العلم من أوتاده ونشره على اعطاف الأمة التي استفاقت من استكانتها ولمّا تنشغف بعد. إن الجامعة الوسيعة التي ألهب تياراتها جدك المستهيم

بتأجيج الحق والنبل في عالم الإنسان، هي في شوقك الحثيث بأن توضّح معالمها، وتأخذ منها ما يقوِّم جهدك، ويسدد عزمك في المثابرة والتوسع، لتكون لك في يثرب مدرسة فرعية ومشتقّة من الجامعة الأصيلة تستكمل مواردها الفكرية والروحية، سواءً بسواء، بينما تكون العلوم فيها قواعد نور تفسر الخطوط وتركزها على مناهجها الأصيلة. إن تلقيح الفكر بسنابل العلم المدبّج، يوسع موائد الأمم، ويطهّر حضاراتها. وينمي الخير في الإنسان، ويشهي المعروف ويعقم المنكر.

شكراً لك أيها السيد الإمام الباقر، تأخذ إلى عاتقك ما أوكل إليك. فالمدرسة التي تعهدتها في يثرب، هي فرع من جامعة، تنال منها النور وتكمل لها الحدث. إن ابنك الإمام الصادق، سيستوفي منك، وبين يديك، شروط الإمامة، في حقيقة المثابرة وصحة المران، وسيكون له امتداد آخر في التذكير، والتوسيع، والتحقيق، عسى الأمة تستنير ـ مع طالع الأيام ـ لتجد أن العلم إذ ما يُعَتّم عليه، تيبس مواردها، وتحصد ـ هي الأمة ـ جوعاً لا يكون له اسم غير الهوان!!!



المقدمة

إن في الكلمة الأولى الموجهة إلى السيد الجليل الإمام الباقر ما يشدد الظن بأن الرجل العظيم الذي هو محمد بن علي بن الحسين بن أمير المؤمنين الإمام علي (ع) هو حلقة متينة من حلقات السلسلة المتدرجة على خط الإمامة، وهي في خلدي: مجتمع وأم وحقل صيانة.

لقد أشار إليه اللمح ـ كما سيشير التبسّط في التوضيح المحلّل والمعلّل ـ بأنه رائد من الرواد الكبار، عرف كيف يعالج القضايا الفكرية ـ الحياتية ـ المصيرية، وكيف يحيطها بالتعهد والدراية حتى يستقيم لها حقّ وأود، ويستمرّ بها نقاءٌ ورواء.

إن الخطوط التي لمحتها هذه الكلمة، بما قدمته من رموز أو مضامين، تكتفي بالتدليل إلى أن هموم الإمام في سياسة الأمة قد انحصرت ـ بنوع مميّز ـ في التدريس وايصال العلوم، بكافة حقولها، إلى الأذهان، وبذلكَ يكون الحاكم قد اطمأن بأن الحكم هو له وحده في بسطة السلطات، وتعهد الأحكام، وادارة الدولة. . . غير أن الحقيقة الصارخة تصرح بأن السياسة الصالحة لن تنال مجتمعاً من مجتمعات الإنسان ما لم يحدد معالمها: الفهم والوعي والادراك. إن الثقافة وحدها هي القمينة بامتصاص المعايير المبذولة في التوجيه والتهذيب وصدق الانصياع، ولن يكون غير الاقتناع ملماً بوضوح البث، وتلك هي الثقافة العامة التي تعيّن

المضامينَ وتوضِّح الأهداف. إن المجتمع - في الرفاهية تلك - هو المسترشد بالحق، والمستنير باليقين، وعندئذٍ - ولا شك بصحة الافتراض - فالحاكم هو المنبوذ إذا تاهت به قدمُهُ عن الدائرة المستنيرة، إن في الصواب شمساً تدل إليه، شرط أن يقوم العلم والفهم بجلوة العين من قذاها.

ليس للبحث الآن مجال للتوسع فيه وتعزيزه بالشروح الناطقة، سيكون لنا - ونحن نغوص في سيرة إمامنا الباقر - ما يجعلنا نأخذ منه - بالتدريج - مصداقية القول ومصدقية الاتجاه، وها نحن نلمّح مسبقاً عنه بأنه ابتعد عن السياسة التي يخوضها الحاكمون وهم على الكراسي المدبّجة بذهبٍ وتارجٍ وصولجان، وراح إلى بهوٍ خاصٍ له، وإلى مسجد مشرع الأبواب، لجده النبي الرسول، يجمع التلاميذ المتشوّقين إلى المناهل، يسكب في أذهانهم وألبابهم، قطراتٍ قطرات، مما أدّخره في خزائن نفسه من علمٍ، ونورٍ، وحق وصواب.

لقد صدّق الحاكمون الرجل وما كذّبوه في تنازله لهم عن سياسةٍ تخوِّلُهُمْ حقَّ التصرف بالأرزاق والأعناق، ومن العجب العجاب أنهم لمحوا تخطيطاً عنده لغدٍ تتقدس فيه الأرزاق وتتحرر فيه الأعناق، ولو كان لهم أن يلمحوا، لما كان لهم أمسٌ من ضياع، وغدٌ من غباء، أو يومٌ من ظلمٍ بلا فجرٍ من رجاء.

منذ الزمن الأول، والجزيرة العربية تتلملم على تسوُّقات النداء، وتحقَّقت لها على يد النبي العظيم آياتُ النداء، وتنزّلت لها الآيات والتمَّت في كتابٍ راحت تقرأ فيه كلّ ما هو موزّعٌ على جدولين: جدولٍ للحق، وجدولٍ للباطل. وهو وحدهُ المعروف، وهو وحده المرجوُّ في لمة الشمل لمقابلة الفجر واستقبال الأشعة، والباطل هو الشّر، وهو وحدَهُ في سحنة المنكر، وهو وحدَه المخزِيُّ في تفتيت الجماعات ورميها في بؤرة الخيبة.

وراحت الجزيرة كلها تقرأ أيضاً في الكتاب: أنَّ العلمَ وحدهُ منبتُ

السنابل، وصانعُ الطحين، ومرَوِّيهِ في عملية العجن، ومرقِّقُهُ على لوحة الفران، ومشَهِّيهِ خبزاً على المائدة الكبرى التي هي الأمة المثلى الصالحة لأن تكون هدياً لكل أمم الأرض.

أترانا وصلنا إلى الدرب الذي اختطَّه الإمامُ الباقر في تنحِّيه، عن السياسات المعوجة الضائعة عن تعهداتها السليمة؟! ولكنَّ العلم الذي راح الإمام الآن إلى معالجة شؤونه، إنما هو ـ أساساً ـ من مسؤولية المتوليِّ ادارة الأمة في جميع شؤونها الحياتية، المادية والروحية على السواء، وذلك ما فات الأمةَّ منذ ما يقارب العشرة عقود... لقد ترّبت لها الخطوط الإمامية للقيام بكل ما يلزم من تعهدات، وكان العلم من أجلِّها في البروز والتعهد، لقد قام الإمام الباقر بتنشيط مدرسته الباقرية باعتبارها استئنافاّ لنشاطات أخرى كان لأبيه الإمام زين العابدين أن عمد إليها سداًّ لفراغٍ رماه فيه حزنهُ الكبير على أبيه الحسين سيد المستشهدين! وإنها ذاتها المدرسة الأولى التي رسم أساستها ركيزةُ الأئمة الإمام علي أمير المؤمنين.

ولا الإمام علي تمكن من تتميم التعهدات المرتبطة بخط الإمامة، وقد لعبت بها دعابات السقيفة... ثلاث سنواتٍ عجاف شلَّت عهد الإمام وألقته صريعاً على بوابة المسجد، يختزن العلمَ كي يُفهمَ المتخبئين خلف حيطان الجريمة، بأن الشرَّ ليس نصف الكلمة، ليكون الخيرُ نصفَهَا الآخر ـ وكذلك الاذعان ليس نصف الكتاب، ليكون العصيان نصفه الآخر!!!.

فالخير والشر ليسا الكلمة البهيَّة... إنما الخير وحده هو الكلمة البهيَّة والعصيان والإذعان ليسا الكتاب المُرَجَّا، إنما الإذعان وحده هو الكتاب المُرجَّا.

لقد أُلهِيَت كثيراً مدرسة الإمام علي (ع) عن تركيز ذاتها، وتوسيع فروعها، وهكذا بقيت نائمة في ردهة الانتظار أما الإمام الحسن، وقد عاد من الكوفة إلى يثرب، بعد أن لملم الأمة ورأبَ صدعَهَا من الانفراط، فإنه

لجأ إلى مدرسة أبيه ينشِّط تيّاراتها النائمة على مهد الإمام الصريع، ولكنها تخدرت بالسم ذاته الذي انتقعت به عروقُه الزكية... إنه الشر الذي هو نصف الكلمة عند معاوية، عطَّل به ـ هذا المعاوية ـ خيراً يتمرس به الإمام الثاني بادعانه لكل ما جاء في آي الكتاب.

وحده الإمام الحسين ـ بعد مقتل أخيه الحسن بالسم ـ وسَّع المدرسة الطالبية ومهرها بالدم، ليكون العنفوان ـ بدوره ـ مادةً من مواد التعليم: كالحساب وكل العلوم الرياضية، وكالجغرافيا وكل السهوب الهندسية، وكالفيزياء وكل المعادلات الكيميائية، وكالفقه وكل المفازات الفلسفية، وكالطبابة وكل اسعافاته الوقائية.

أما الأخلاق، وما يشوِّهها من المآرب، والغايات، وربطُ الدنيا بأحزمةٍ لا هي من عزاء، ولا هي من رجاء، فإنها بقيت وحدها حصة المتلاعبين بالكلمة، يفتتونها حروفاً، ويجمعونها أهواءً لا هي خيرٌ ولا هي شرٌّ، بل هي عقدة الداء!.

هوالإمام الباقر، يترصَّع لنا الآن فيه الرصيد. يبدو أنه لم يصطبر على الأيام حتى تنقاد له من تلقاء ذاتها، بل أنه تعجَّلَها بذكائه وطول أناته، وبفيضٍ من نباهةٍ، وحكمةٍ، ورواء، فجاءت طيَّعة بين يديه، مفسحةً له في الانصباب على تركيز وتوسيع المناهل التي تحتاجها الأمة حتى تتخلَّص ـ رويداً رويداً ـ من عطشٍ فيه من الذل أكثر مما فيه من الحريق!!!.

لقد قلنا ـ منذ لحظات ـ إنَّ من في يدهم الأمر، على عهد الباقر، قد أرضاهم انصراف الإمام إلى مهمة التدريس، وتوسيع مدرسته بالفروع العلمية، ومنها الجليل النادر: كالفيزياء والكيمياء، ودروس الأشياء، وكالحساب، والطب، والجغرافيا، وما شابهها من هندسةٍ ورياضيات. إلى جانب علوم أخرى تتنشط بها البصائر والضمائر، كعلم الحديث، والتفسير، والفقه، والفلسفة.

إنها رائعة مدرسة الإمام الوسيعة والمريدَة، يملأها من عمره بالساعات الطوال المجهدة، وتحتلُّ من مضامين فكره، وروحه، ودمه وأعصابه، ما يجعلُها قطعةً من وهجٍ حيٍّ متحرك، تنبض بها سقوف المسجد وحيطان المسجد، وكلُّ الحُصرِ الممدودة في صحن المسجد.

لقد لذَّ للولاة هؤلاء، ولو كانت أسماؤهم هكذا مكرورة: مروان بن الحكم بن العاص، أم عبدُ الملك بن مروان، أم سليمان بن عبد الملك، أم يزيد أخوه الذي هو غير يزيد بن معاوية، أم ابن عبد الملك الأخير الأحول والبخيل والمشهور بهشام... أجل، لقد لذَّ لهم كلهم أن يرمقوا الإمام غارقاً في زنزانته المدرسية، تاركاً لهم وحدهم الحكم والولاية، من دون أي ازعاج أو أي تشويش يتلاعب بساحات أو بزواريب يثرب، كما تلاعبت بها ـ منذ حين ـ ثورة الحرَّة.

هنالك والٍ واحد ـ يا للنعمة ـ وهو من ذات الأرومة، طابت فيه السجية، ولانت في صدره العريكة، دخل المسجد والإمام فيه نصف رابض على حصير، يلقي الدرس ويعطفه من تفسير إلى تيسير، وحوله صفوف من فتيان، ومن كهلان، وحتى من شيوخ، وكلهم رضوانٌ وكلهم ركَّعٌ يصغون.

لقد بهر الخليفة عمر بن عبد العزيز بالدرس الخارج من بين الثنايا كأنه قطعة من صلاة، مع أنه حديث منقول من شفةٍ إلى شفةٍ كانت تطرح السؤال على شفة الرسول.

إنها نبذة قد يبدو أنها تقريظٌ لما يقوم به جهد الإمام، ولكنها ليست لأكثر من التدليل عن صدق المواهب فيه، وهي الطائعة بين يديه، في روعة البثّ وروعة الأسلوب، وهي ذاتها ـ في صدق دفقها، وعمق مداها ـ تجمع له احترام الناس وثقتهم به. ومن هنا أن الولاة أنفسهم ـ وقد كرهوه ـ ومنهم الظالم ومنهم المستبد، ومنهم الكافر العاتي، ولكنهم كلهم

سكتوا تحت ظلّ عينيه، لأن في عينيه قبساً شبيهاً بما كانت تشع به عين الرسول.

أظن المقدمة ـ وقد تداخل بها العرض ـ قد أوصلتنا بوضوحٍ إلى مبتغانا ـ وها نحن نقرع الباب ليكون لنا سماحٌ في الدخول إلى المحراب السني. خطوةً خطوة سنلملم الدرب في الولوج، معصوبين باحترام متين، ونحن نسدد النظر إليه: منذ أن أطلت به عينان ناعستان بالضوء الخفي، إلى أنّ تعمّضَ جفناه على المدى الآخر المنّور، وقد وسّعته بالعلم، واضاءته بالفهم جهود له متنسكة للحق، وبالحق مبقورة.




الدورة الأولى





الاطلالة الأولى: اطلالة الشبيه

إيه يا أم عبدالله، يا أيتها الصدّيقة المفطومة عن كل عيبٍ ورجس. لقد نقل إليك أبوك الإمام الحسن اسم جدتك فاطمة. فطابت فيك المزايا الناطقة، كما طيَّبك الفوح المقدس. فهنيئاً لك هذا الفيض تتلملمين به وتنجبين بكرك عبدالله، وقد نطق به البهاء الذي أخذ به جده الإمام الحسين فلقبه بالباهر.

وها أنت اليوم تبتهلين بوليدك الثاني، وقد شعَّ به سناءٌ مختومٌ بأكثر من آية، مما جعلك مع هذا الصباح الشهيِّ، تسجدين سجدة السرّ بين يدي عمك الإمام، راجية إليه أن يكون قربك في خشوع الذات، وينتقي لهذا الوليد الجديد اسماً نجيّاً، يكون مشتقاً من هذه الملامح ومن مثل هذا الضياء.

لقد لبَّاك الإمام تنادينه بصوتٍ من مهجةٍ مفتونةٍ بمهجة، وهفا إليك بشوقٍ مبلولٍ بحنين الصلاة، ولما اجتباه الطفل إليه، وقف مشدوهاً يقرأ الخطوط الدقيقة المنثورة على جبينه كأنها شعيرات من لموع النجمة الزهراء، تخفرها من فوق قمة الراس دويرات دويرات من شعر مجعدّ، كأنه حلقات من درع محبوك بالزرد، بانتظار وقعة تحصل في الساحة المجهولة! أما عيناه الصغيرتان فكانتا مطبقتين على فحوىً عميق كأنَّ النور فيهما هو المخبَّأُ تحت رقاقاتٍ من كسل، تنمُّ عنه زوايا أربع، في كل

واحدةٍ منها اهتزازات خفيفة كأنها خلجة من هدآت الضحى، أو حبوة من حبوات الأمل، ليكون على الوجنتين مطافٌ آخر لموجاتٍ سخيةٍ باللطف النجيّ الراضي بذاته، من دون أن تجتذبه إلا بسمة خفيفةٌ نادرة، أو نجوى ذكيةٌ حائرة... هنالك شفتان يضج عليهما شوق ممتازٌ وملهوف إلى حزنٍ ثريٍّ، كأنَّهُ صاعدٌ من كبدٍ تأبى أن ينزَّ عليها ذوب الزعفران.

لقد أخذت يا فاطمة الأم بما بدا من الإمام العظيم، وهو مستغرقٌ في قراءة الوجه النائم على البحبوحة... ولكنك أُخذت ـ بشكل حميم ـ عندما رأيته يجبّي الأرض بركبتيه ويثلمُهَا بالسجود المكفوف بالرضا المؤمن. سكرت بما شهدت من الوله الصامت المتحرك الحيّ، وغرقت ـ من جديد ـ في غفوة منسولة من الجو المبارك، يسبح فيه طفل مقمَّطٌ بوشيجةٍ من حلمٍ وخيال.

ولكن الوقت الذي طال على تهيبات السكون، قَطَعَتْ من هدأته، نأمةٌ نجيَّةٌ، نزلت في أذن فاطمة اليمنى وهي تضم الطفل إلى صدرها بالزند اليسار ـ وسمعت قول الإمام ـ كأنه النجوى الهابطة من خلف الغمام:

كثيراً ما وشوشنا جابر بن عبدالله الأنصاري يا فاطمة.

بأن واحداً من أبنائنا يميزه شَبهٌ بجدي الرسول.

وبعد غوص آخر ـ غاصه الإمام في التقاسيم ـ عادت فاطمة تسمعه يقول:

فَلْنُسَمِّهِ بالباقر.

سيبقر العلوم ويفجرها حقاً وهدى.

الباقر

لقد تعجَّلَ الإمام الحسين على أم الوليد الجديد. وعلينا نحن المتنصتين إلى كل نأمة نأَمت بها الأحداث، وتناقلتها أَلْسَنَةُ التاريخ، ليكون لنا ـ في معرض الإصغاء المصفّى ـ رأيٌ مستخلص من صدق الوقائع، وموقفٌ مبّرأ من افتراءات الدسِّ المبثوث بين حروفٍ يهمس بها، في بعض الأحيان، صائغو التاريخ!.

قلت: لقد تعجل الإمام علينا بإفاضة اسمين على الوليد الجديد... لا شك أن الشبه بجده الرسول قد أكسبه الاسم الكبير. وهو اسم محمد، أَمَّا أن يكون الباقر منذ الآن، أي قبل أن يفتح عينيه على النور، وقبل أن تثغثغ شفتاه بحرف من حروف العلم الذي سيفجِّرهُ فهماً وحقاً وتسبيحاً، فإن ذلك هو مما تعجل به الإمام: على الأم، وعلينا، وعلى الطفل بالذات، ولمّا يفتح عينيه بعدُ على مساحات النور.

على الشبيهين بالرسول أن يكونوا ـ على الأقل ـ مثل الرسول طاقةً تفجر العلم حسبما تطلب منهم نوعية التفجير!.

عفوك يا حسين. فأنت الأدرى بالمضامين. وأنت الأصغى إلى همس المسافات الجائلة في دوائر الأبعاد... بالأمس، وليس الأمس لديك دولاباً تكر عليه الثواني وتذوب في بحيرات الزبد، بل هو تركيز الغد في هنيهات الأمس، ليكون للزمن الآتي جذرٌ مغروسٌ في كل يومٍ عشناه في عمرنا، على أن نكون قد ملأناه ـ هذا اليوم المعاش ـ في ذواتنا، بكل ما

هو حق في الحياة، وبكل ما هو نور وصواب.

هكذا هي الأبعاد تحت عينيك أيها الإمام، زرعها في باحات نفسك جدك الرسول منذ أن كنت في المسجد طفلاً تعلو ظهره وهو فوق المنبر يوزع على الناس: عينيه، ويقينه، ولهاثه... كنت تغمر - بباعيك - رأسه الأوسع من فضاء - ولكنك كنت تشعر وأنت صغير - بأنك بهي كالفضاء وبهيجٌ بهيج كعيني جدك، وهما تغوران في عمق الفضاء.

لقد مكنك جدك الرسول - وأنت طفل - من استطلاع الغد. وجَعِله جذوةً في يومك المفعم منك بالخير والعطاء. من هنا كان لك بالغد - لاسيما إذا كان فسيحاً في صدر الزمان - اهتمام مميَّز بالنشاط والتركيز، باعتباره المدى الزمني الصالح والكافي للاهتمام بالقضايا الكبيرة، الفكرية - العقائدية - الروحية، والتي تنال منها الأمم القوية مناعتَهَا، وحضارتها، وكلَّ مقوماتها الحياتية الراشدة في المجتمع الإنساني المتمكن في الوجود.

ليس بدعاً أيها السيد أن ترى أبعاد الخطوط، فجدك العظيم، وهو المطوي في يقين أبيك وطويته الأنيقة، هو الذي مهَّد لك كيفية حفر الخطوط، وأهمية قراءتها بعينٍ تكشف الأبعاد وتستجليها.....

والأبعاد، هي الخطوط العريضة، والمرسومة على اللوح العريض، فالرسالة - مثلاً - هي خط طويل وخط عريض. وكذلك هي الأمة المخصوصة بالرسالة. وكذلك أيضاً هي الإمامة المرتبطة بالرسالة وبالأمة بشكل وثيق.

واللوح العريض هو الغد المسلوخ من طينة الأمس، يتطيب بها الزمان، ويطول عمره بما يتجمع إليه من الأعراف السليمة المضخمَّة بالمناخات العقلية والروحية، والتي لا يعيش بغيرها وجود الإنسان، أو بالأحرى وجدانه العفيف.

إن الفصل المفتوح الآن أمامنا، وعنوانه: خطوط عريضة، هو في تخصيص البحوث واضاءاتها بالجلاء عن كل ما قرأه الحسين في تقاسيم حفيدٍ له، ليس في محيَّاه النديّ سوى براءةِ مثلى، قد تتخبَّأُ خلفها سمات منثورة في شبه شعيرات نحيلة، جاءت بها، في الخفاء من الأب ومن الأم، سليقة خلقية مشطورة إلى بطانة الرحم، عاش بها الجنين، وبها نما، وبها تلوَّن.

فليكن لنا من مثل هذا النوع من التلميح ما نستضيء به إذا اقتضت حاجة، ومن جملة التلميح أيضاً أن نذكر أنَّ للطفل المسمى الآن محمد الباقر ثلاثة جدودٍ على خط أبيه: الإمام الحسين، والإمام علي، والنبي الرسول... وله ثلاث جدات على ذات الخط الأبوي: شهزنان سيدة الأميرات، وفاطمة الزهراء، سيدة النساء، والأمينة خديجة سيدة المخلصات، وإن المولود الجديد لن يرتبط بخط الإمامة قبل ثمان وثلاثين سنة، أربع منها لا تزال مرهونة بجده الإمام الحسين، وقد قضاها مهموكاً بتعبيد الطريق الممدود بين مكة وكربلاء الكوفة، وأخيراً مشاها ـ خطواته المرسومة ـ ومهرها بدمه الأزهى من الأرجوان، بعد أن سلَّم ابنه علياً مقاليد الامارة، مسجلاً على صفحة التاريخ ما يسمى برفض الذل، وتمجيد العنفوان.

لقد تكحلت عينا محمد الباقر ـ على مدى عشرة أيامٍ متعاقبة في ساحات كربلا ـ باثمدٍ أحمر، لم يفارقها مدى العمر.

بعد أربع وثلاثين سنة من هذه اللحظة المصبوغة بنبل الدم، أغمض عينيه ذلك الذي لقبه جده الرسول بزين العابدين، وانتقلت خلافة الرسول إلى فتى مفتوح الجبين، اشهب الصفات، أصهب، نقل إليه جده الرسول شوقاً من أشواقه الميممة بالعلم الوسيع، والعلم الرفيع، والعلم المنيع ـ لقد حمل إليه لفحة الشوق البليغ، رجلٌ صحابيٌّ سجد

طويلاً بين يدي الرسول، وتبارك كثيراً بلثم بناناته ـ إنه جابر بن عبدالله الأنصاري. لقد أطال الله بعمره حتى شاهد الفتى، فاحتضنه، واشبعه لثماً ـ وهو يقول له:

«جدك الرسول يقرئك السلام، فأنت شبيه به، ولقد ألح علي لأبلغك بأنه لقبك بالباقر».

جابر الأنصاري

إنه جابر بن عبدالله الأنصاري. . . تعرفت إليه بعد إن سمعته يتكلم في جلستين كلاماً قصيراً، فاكبرت الكلمة الصغيرة في فمه لا يسكن أبداً صداها.

كانت الجلسة الأولى في بيت الإمام زين العابدين: دخل جابر والإمام ساجد يصلي، فوقف خلفه في خشوع طويل، وانتظار بلا ملل ـ ولكن الإمام الغائص في السجود، كانت صلاته أطول من حزنه على أبيه الحسين شهيد كربلاء. وانتهت الصلاة ـ بعد وقت طويل ـ مبلولةً بدمٍ أحمر! تقدم الزائر جابر وسجد بين يدي المزور المبرور، وهو يقول:

يا ابن رسول الله أما علمت أن الله تعالى خلق الجنة لكم ولمن أحبّكم، فما هذا الجهد الذي كلْفته نفسك؟! البُقاء على نفسك يا سيدي، فإنك من أسرة بهم يستدفع البلاء، وبهم تستكشف الأدواء.

لقد كان كلام جابر بعيد الغور. لقد قصد اسكات حزنٍ يضني، وابقاء إمام مسؤول عن رعية. . .

أما الجلسة الثانية فهي التي رأيناه فيها منذ لحظات، ينقل وصية الرسول إلى حفيده ابن زين العابدين:

«جدك الرسول يقرئك السلام، فأنت شبيه به، ولقد ألحَّ علي لأبلغك: بأنه لقبك بالباقر».

إن في التبليغ شهادة تفصح بأن حامل التبليغ ضليع بمقاصد الرسول. وأنه نعم المبلغ ونعم الضليع... فهل يكون لي أن أصيب من مقاتله، أو بالأحرى، بعضاً من فضائله ومواهبه إذا قلت فيه مثل هذه النبذات؟:

إنما هو جابر:

صحابي صادق وممتاز.

أنه أروع ممن جاء على صف الأنصار.

وهو شيخ وقور مديد العمر.

بريءٌ كأنه طفل.

وديعٌ كأنه حمامة.

ذو رأي وحكمة كأنه زهير بن أبي سلمى.

ثابت كأنه صنديد.

ينقصف السيف في يمينه... ولكنه لا يرميه.

قبضة السيف تعشق كفه...

وهكذا البسمة تعشق ثغره...

ويرى الأبعاد كلَّها...

ويشهد لكل واحد منها بكلمة قصيرة.

فإذا ما قالها صمت وتبسم.

عايش الرسول العظيم.

وأخذ منه قوتَ عمره...

يا للرسالة نزلت في روعِهِ زرعاً...

ألا نراه:

زرع في الأمس،

ما يعيش به اليوم؟

الرسالة

والرسالة ـ انها خط من خطوط الطول، ليكون لها ـ من مداها ـ ظلٌّ يتألف منه خط العرض. أما خط الطول فمعناه غوصٌ في عالم الروح، واستنجادٌ بقوى الفكر، واستغراق يوجِّهُ الشوقَ إلى مجالات اليقين، واستغاثةٌ بالخيال يقرع أبواق اليقين المفتوحة على سرمدٍ بهائيٍّ يستنير به إنسان الأرض. إن الله مخبوءٌ في الرسالة تبسط للإنسان كلَّ ما أفرغه عليها الغوص في كنه الوجود الممدود على كف الخالق الذي هو كل روعة الوجود. إن الله في حرف الرسالة: فهو الوجود وكل الوجود، وهو الجمال وكل الجمال، وهو الكمال، وهو الحق، وهو الخير، وهو ـ وحده ـ المثال والمآل.

أما الخط العريض فمعناه انتقال الرسالة من حالة الغوص الكبيرة إلى حركة التبشير الصغيرة، وهي الموجهة إلى الإنسان.

إن الغواصين هم أولئك القلائل النادرون، يتناولون الغوص وصولاً إلى يقين يوجهون به الإنسان ويبنونه أمةً راشدة، ومجتمعاً سليماً. . . إنهم المنتهون إلى يقينٍ بأن الله هو المهيمن على الوجود: فإذ لا يرى، تتأكد رؤيته المليئة به.

فالفكر يدركه، وما يقع تحت العين أو ما يفوتها، يدركه. وما يلمحه الخيال أو ما لا يلمحه الخيال، يدركه، كما وإن انتفاء الفراغ يدركه.

وكل ما يغيب عن العين، وعن الأذن، وعن الحس، وعن مطلق المسافات، يدركه... فليكن المصدر، وليكن اليقين. وليكن الوحيد، وفي مطلق الحال فليكن الدين.

ولكن الغوص الذي غرق فيه الأمين محمد، أكان خمساً وعشرين سنه في عب غار، أم كان ـ على مدى العمر ـ في قلب مجتمع الجزيرة المشحونة بالنار، وبالغبار، وبعددٍ لا يحصى من مئات القبائل السائبة بين خطوط النار وزحمات الغبار، إنما هو غوص كان مميزاً عن أي غوص ساح فيه الأسبقون. ولم يكن الأسبقون ـ في مطلق الحال ـ من غير سلسلةٍ من خط الجدود، كانوا ينطلقون أفواجاً وأفواجاً من خطوط النار في قلب الجزيرة، ومن خطوط الغبار، ليكون لهم التحام بكل الأرض المفتوحة أمامهم على عرض الشمال امتداداً من شاطىء المتوسط، على طول السهول المكفوفة بالجدار العالي المنتصب بامانوس، وزغروس والبختياري، انصباباً ـ مع دجلة وفرات ـ في الخليج المشترك، بشاطئيه العربي والفارسي... ها هي الأرض التي كانت تتقبل الأفواج العربية المصفوفة على طول الجنوب ـ إنها الأرض اللبنانية ـ الفلسطينية ـ الأردنية ـ الشامية ـ العراقية المجموعة باسم الهلال الخصيب. لقد عين الخصبُ الاسم وكتبه أيضاً ـ بحرفٍ من حروف الأبجدية الفينيقية الكنعانية، وهم فوج من الأفواج المنتقلة والنازلة في الأرض، والمنصهرة فيها. والمشتركة مع الراسخين من أبنائها المنتجين في ذلك الوقت ـ علماً، وفلسفة، وحضارة، والذين كان منهم غواصون في كنه الوجود، وفي الاقرار بخالقٍ في يده وحدة الكون، ونهاية المآل، إن ما جاء في التوراة، وفي المسيحية الحديثة مصداق لما فاضت به الفلسفة في الأرض السورية ـ الآكادية ـ السومرية، وهي التي اخلتط فيها: البابليون والآشوريون والأموريون والآراميون والكنعانيون الفينيقيون، ما عدا هؤلاء السابقين الذين لم يلمحهم التاريخ.

وكذلك وصل فيض هذه الفلسفة العريقة، فاصاب منه كل الجوار القريب والبعيد: أكان من الفرس وهم كتف شرقي ملصوق بكتفٍ غربي، أم كان في غربي البحر البارز بجزيرة قبرص التي انتقل منها الغيث إلى من هم المسمون بالأغارقة اليونان ومن أقاربهم رعيل الرومان، بحيث علمتهم جميعهم ـ قبرص ـ بري المجذاف وشدَّ السفينة... أم كان في المقلب الآخر الساجد بفراعنته تحت اقدام النيل ـ إله مصر ـ وقد حررته من طميه هندسة نشأت في أرض ما بين النهرين تخلصت بها الأرض من طمي دجلة والفرات.

لم تغب الفلسفة تلك عن استيعاب الأمين محمد، وهي فلسفة قد اشترك فيها كل أجداده هؤلاء وانغمروا بعبابها وهي التي حفرت في يقينه حفرها السليم، ونزلت ذكراً استشهادياً في حروف رسالته، ولم يقتنع إلا بمؤداها التوحيدي المؤمن بإله قادر رحيم جبار...

ولكنه ـ في النتيجة الملموحة ـ راح إلى رسالته يكيفها ويشبعها بكل ما يلائم إنسان بيئته بنت أرض الجزيرة المشوية بالجفاف ـ إن الانصباب هذا على توجيه الرسالة وتلقيحها بالملائمات هو الذي ميز غوصه، وميز عمقه، وعين مداه، مع العلم أن هذا التلقيح المقسَّط، لم يخرج الرسالة عن جوهرها التوحيدي ـ الإنساني ـ الأصيل ـ، بل شدها بجاذبية عالمية مفتوحة، لمت الوسيع من مجتمعات الأرض إلى الحضن الإسلامي الرحيم.

لقد كانت الحاجة ملحة في الجزيرة إلى كتاب يلملم قبائلها بين حروفه، فإنسان الجزيرة كانت تطارده الفوضى فوق فسحات الرمال: فهو عدَّاءٌ لا يستقر به شبع. ولا يستريح عليه نظام. من هناك كان له نزوح يكشفه التجوال، ويفرضه الترحال... أما الأمين محمد، فهو الغواص الململم الإنسان إلى كينونة أخرى تلحمه بذاته ـ ومن ثم ـ بوعي القيمة

الإنسانية فيه، ليتمكَّن من الجلوس إلى مائدة يبسط عليها طعامه وشرابه... من هنا إن الغواص قد تمكن منه عمق الغوص، فجمع الكتاب ووفَّى الرسالة، وانضوى إلى الأفق الغائر فيه: رسولاً ونبيّاً!!!.

لم يكن لنا من هذه البسطة الموجزة إلا محاولة تبيانية عن مدى تعبٍ طويلٍ رهن الرسول الكريم جهد العمر من أجل تحقيقة لرفع قيمة الإنسان في الجزيرة، فيكون له مجتمع صالح، وأمة ملمومة بالحق والهدى.

لقد رأى النبي العظيم أن تعبه قد أثمر. وإن الرسالة التي تثبَّت بها الكتاب قد حركت الوعي النائم في الغفلة المشلولة، وها هوالمجتمع يفيق إلى حقيقته المفروضة في الوجود. ولن يلزمه إلا عقود من السنين معدودة، يتمرس فيها ـ بالتدرج ـ على حقيقة الوعي، وحقيقة السير، وحقيقة جلوة العين من رمدها المزمن!.

لقد أصبح تخليص الأمة من كل ما كان يضنيها من معوقات، همَّهُ الكبير، حتى لا يهرق التعب من دون أن تستفيد الرمال من الدم المهراق.

لقد كان يتمنى الرسول أن يعيش أكثر من مئة سنة حتى تتم بين يديه حلقات التدرج في تمتين الوعي وتنظيم البلوغ... ولكن الأشواق لا ترويها الأحلام، ولا يشبعها فرط التمني... وهذا ما كان يلجُّ على الرسول بأن يأخذ الحيطة ويبني بها جدار وقاية لرسالة يجب أن تصان حتى تستمر ـ هي ـ بالصيانة.

إن الأمة بالذات قد أنجبت عبر تخطيها غياهب القرون ودهاليز الحقب، رجلاً منها، مصمداً من مساحتها، ومن مسافاتها المسحوبة من مشقات الدروب: انه ثمالة الكأس التي شربتها، وانه قبضة الرماد الناتجة من حريق أوصالها فوق المحطات التي بلغتها في مشيها الحافي، وانه الجذوة النابتة من حريق كل عواسجها التي اقتلعتها من حقول التجارب!!!.

إن الأمة بالذات ـ يناجي نفسه الرسول الهلوع على أمة ستعود إلى خيباتها إن لم تعالجها الرسالة قاطعة بها الليل الطويل ـ هي التي تستحثه الآن في تعجيل تمتين الحيطة، بانشاء جدار حريز، يؤمن لها الصيانة القائمة على حفظ الرسالة في اسطواناتها المقدسة، ويجهزها بصف منيع من الحراس الأولياء، يعزّزهم العلم، والفهم، والرشد، والسياسة الممرَّنة والمتمرسة بالعفاف.

لم يجد الرسول الكريم. والنبي العظيم، والغواص الغارق في لهاث الجهد، والحريص على أمة شتتها الضيم فوق مساحات الحريق قبائل قبائل، تستمطر سراباً وتشرب دمع السراب!!!.

أجل، لم يجد الرسول اليقظان في هلعه، إلا تنظيماً يطال الغد الكبير زارعاً فيه نتاج اليوم القصير المحتاج إلى مران أصيل ومراس طويل ـ وسياسة حكيمة تصون الرسالة، وتصون الأمة، وتوثق الغد بصدق الذمام... إن الإمامة هي هذا التنظيم وهي زنار الأمان.

الخط العريض

ليس اللقبُ الكبير تقمّط به الوليد الجديد وهو في حضن أمه فاطمة، غير غزلٍ من مغازل النجوى المدقوقة على مكوك الخط العريض. والخط العريض هو ذاته الزنار الذي سلخ الرسول العظيم خمساً وعشرين سنة من عمره اختلاءً عميقاً في عب غار، من أجل أن يغزله عريضاً ومتيناً، يزنّر به خصر الأمة، فيشتد حقواهَا وتمشي منيعة بإنسانها السويّ، فوق الدروب. وليس الخطُّ العريض غير الرسالة بالذات ملفوفةً بنعمة ربها للهداية، ومكفوفةً بزنار عفيفٍ للوقاية والدراية، حتى تعبر خطوط المزالق إلى وصولٍ منزّهٍ وسليم.

في الاختلاء المنزِّه تقبّل النبي العظيم هبوط الرسالة. وقبل أن يخوض دروب التبليغ ومشقاتها الجسيمة، كانت له خلوات جانبية تحصل في زوايا بيته المطهر، على وشوشات يغمرها ظلام الليل، ومهابات السكينة، وهمسات التأمل... من يمكنه أن يفترض أن مثل هذه الاختلاءات الطويلة، لم تكن تحصل بين رجلين تجمعها واشجتان: واحدة من عقلٍ وروح وأدب، وأخرى من همٍّ واحدٍ ووثاقة في الحسب؟ ينام في صدر الرجل الأول وخلف عينيه لغزٌ لا بد منه من أن يتفجَّر ويتفسّر، وتنام في بال الرجل الثاني روعة اللغز، على مخافة أن تهرقَ الروعةُ(إنِ اللغزُ لم يتفجر ويتفسّر.

من هنا أنَّ الرسول الكريم ما وسَّع عباءته إلا ليضم إلى جنبه رفيقاً له كأنه فلقة منه... سيكون لهما فراش واحدٌ ينامان فيه إذا أعوت عليهما ريح من زمهرير.... سيختلي به لتقويم كل خطوةٍ قبل أن يتعثر بها الدرب الطويل... سيفجِّرُ به ومعه لغزاً تنام فيه رسالة تحضن الأمة وترفعها إلى سماء... سيزوجه من ابنته فاطمة، وهي فلذة من كبده، حتى يكون له ـ منهما ـ ذريةٌ تثقِّف الأمة بالرسالة، وتحفظها إلى يومٍ بعيد.

ليست قليلة اختلاءات الرجلين العظمين، وهما: النبي العظيم وعليٌّ العظيم الآخر، وهي ليست المفترضة، بل المؤكدة الحصول، لأن الارتباطات الواقعية، وكلَّ الأحداث المصيرية التي حصلت، ويمكن حصولها على الأرض ـ تشير إلى أن الخلوات تلك ما كانت تتم إلا للتدارس في الأمور الكبيرة، واتخاذ القررات الحازمة، في سبيل جعلها تسير في خدمة الخط الذي هو ـ إلى حدٍ عريضٍ ـ خط الرسالة ـ إن الرسالة بالذات، والنبي الكريم هو المدعو إلى تمزيق الغلف عنها، لم يكن له أن يقوم بخطوة واحدةٍ في سبيل نقلها إلى الأذهان، إلا بعد اختلاءٍ طويل بمن يثق به، يتم فيه الدرس والتخطيط، واتخاذ القِرارات. فلنسأل واقعة بدر، أو واقعة أحد، أو واقعة خيبر أو تلك المشهورة بواقعة الأحزاب... أية واقعة منها لم تدرس في خلوةٍ، ولم يُمشَ إليها بقرار؟.

بديهي أن لا نلجأ إلى ما يثبت لنا أنَّ علياً كان في كل حين من الأحيان، نعم الرفيق، ونعم الأمين، ونعمَ الوفّي، ونعمَ المستشار... ولكن القول هنا ليس لاثبات الإمام علي بأنه فارس المضمار، بل يتجه القصد إلى النبي العظيم بالذات، بأنه لم يكن ليتناول أيَّ بندٍ من بنود قضاياه الملمَّة بشؤون الحياة ومراميها القصية، إلا بعد أن يشمل هذا البند بالدرس والتمحيص في خلواته مع نفسه ومع الأخص من مستشاريه، ليتم ـ على مهل ـ اتخاذ قرار الدفاع عنه بالكيفية المطلوبة، فإذا كان له هذا التصرف إزاء أية واحدة من آيات كتابه المأخوذة على انفراد. فكيف يكون

شأنه في توضيب التصرف المليء الاحتراز، عندما يتخوَّف من أفواج المقتحمين على تشويه كل الكتاب بما فيه من سورٍ قِبَب، وبما فيه من حروفٍ آياتٍ؟... إنه الكتاب... إنها الرسالة... إنها مجتنى العمر على مدى الدهور، ومدى الحقب... إنها لمَّامة شمل الأمة، وإنها زنّارها الواقي من الانفراط.

لقد كانت الأمة ـ في حساب النبي العظيم ـ مهبط آماله، وهالة أحلامه ـ وما كان له أن يرجو اثابةً من ربه إذا تثبَّطت به الهمة عن كفكفة الأمة بأفياء الرسالة، لتكون هدياً لأمم الأرض، ومثالاً لكل واحدة منها: في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإذا تعثَّر بها الفهم وغابت عن مراميها، فما أتعسَها ـ أمةً ـ تخيب بها حروف الآيات، وتضيقُ عليها فتحات السور، ليكون ـ هو النبيُّ ـ كئيباً كئيباً ستثقلُ عليه بلاطة الرمس، بينما تشتاقه فسحات الجنان!!!.

كل ما في الأمر أن هذا كله كان وارداً في تحسب الرسول، ولقد ازدادت وطأة التحسب في باله، عندما راح يشعر بأن الأجل يدنو منه وبين يديه محفة مسحوبة من عمق الظلال! والأمة التي سيتركها ـ وحدها ـ ويغمض عينيه ويغيب؟! من غيرهُ سيغمرها بعينٍ فيها مثل هذا العطف، وفيها مثل هذا النصيب؟! صحيح أنه جهزها بالرسالة، وصحيح أيضاً أنه لفلفها بالكتاب... ولكن الرسالة ـ وهي حشو الكتاب ـ ليست مطلقاً: لا آياتٍ ولا حروف آيات... إنما هي في تفتيق كل آية من حروفها الصامتات وفي تعويهما بالروح حتى تضجَّ بها الحياة، وتلتحم بها الكلمات، وتنطق بها السِّمات... إن في كل حرفٍ من حروف الآيات ظلاً مسحوباً من غور، وغوراً مشقوقاً من فضاء!!!.

وإثر ما يهبط الرسول من وقوفه ويغيب! فمن هو الواقف بعده؟ يمشي بالأمة فوق الدروب، وهو يفسِّر لها المعاني النائمة بين حرفٍ وحرفٍ من حروف الآيات!!! وبعد أن يصمت الرسول؟ من يخلّصُ الكلمة

من صقيع الموت، غيرُ العارف ـ مثله ـ أن الحرارة هاجعة في الكلمة، ولن يكون لها سريان إلا بعمليةٍ من وصل حرفٍ بحرف، فينتفي الهذيان وتنتشي السور. . . أليست ـ هكذا ـ بزغةُ الضوء انبجاساً، إذ يلمس السلب وجنة الإيجاب؟.

والأمة ـ في ظنِّ الرسول ـ لن ينهض بها رجاء، لا اليوم ولا في أيِّ غدٍ آت، ما لم ينورها العلم والفهم الموسع. . . وعندئذٍ، فالكتاب، بكل ما بين دفتيه، هُوَلها في مدارج الإدراك، ينقلها ـ حثيثاً ـ إلى استطلاعاتٍ أخرى، يخف عنها مضيض الجهل، ويقوى فيها وميض العرفان. . . وللعرفان الذائب في حقيقة المعرفة وحقيقة الوجدان، معونات ومعونات، تشفع بالإنسان إلى سموٍ في السلوك، وإلى شبعٍ في المزايا، وكلها تبني الأمة وترجِّحها في كفة الميزان. والعلم؟ من ينقله ويوسع أدراجه إلا الباحثون والمنقبون الفاهمون؟ إن فيه ـ وحده ـ الإلمام بكل شأن من شؤون الحياة، وعلى الأمة أن تنهل منه، وبقدر ما تنهل يبهو بها التحصيل.

والأمة ـ بالتفصيل ـ بحاجة إلى العلم يعلمها أن تزرع وأن تحصد، . . وأن تبني اهراءَاتٍ تخزن فيها ـ ليوم القحط ـ ما تحصد.

وهي بحاجة إليه يعلمها أن تقرأ، وإن تكتب، وأَن تفهم ما تقرأ وما تكتب. وهي بحاجة إليه يعلمها الفصل بين الحق والباطل، فلا تأكل رغيفها إلا عن صينية الأول، وتنبذه عن صينية الثاني، لأن الحق تأكله فتصفو عينها، أما الرغيف الآخر فسمّ يهرِّيءُ الأحشاء!.

وهي بحاجة إلى علمٍ يعلمها كيف تمشي على الموج فلا تغرق، وعلى اللفح فلا تحرق، لأَن في الموج زَبَداً يعدله المجذاف، وفي اللفح حزاماً يلطفه اليقين.

وهي بحاجة إلى علمٍ يعلمها جمع الخيط من نسالته، ثم غزله، ثم

نسجه على مكوكٍ تبرعُ في بري عوده، فيكون لها ـ من جهد يدها ـ عباءتان: واحدة تلبسها في يوم الهجير، وثانية في يوم الزمهرير.

وهي بحاجة إلى علم يعلمها كيف تحصي خطواتها فوق الدروب، وعبر البحار وعبر الرمال، وعبر المجاهل والحدود... لأن في ذلك كله هندسةً ترتب لها شدَّ نعالها نحو الأقاصي، وترسم بها جغرافية الأرض ومناخاتها، حتى تعرف متى تذهب، وكيف تجول، ومتى تؤوب ـ وتعلمها على المدى الطويل: كيف ترقق المجذاف، وكيف تنجِّد السفنة...

أما الأرقام فسيكون لها ـ تحت عينيها ـ رصف على اللوح يرقُصُ به علم الحساب... أما الفلسفة، والفقه، ومُيَسَّرَاتُ التفسير، وتفتيقُ الألغاز النائمة بين الحروف، فإن المنطق ـ وحده ـ يعلمها الخشوع لكل آية من آياته البينات.

وهي بحاجة ـ بشكل مطلق ـ إلى علم يعلمها كيف تطبِّبُ أجسامَها فلا تنهشها الأدواء، وعقولَها فلا تشعثها الترهات، وأن توسع مداركها بعلوم الفيزياء، ومعادلات الكيمياء، ليكون لها شبه اطلاع على ما يحصل حولها في خضم الوجود، من تفاعلاتٍ يأخذ بعضها بركاب بعض، كأنها من نهاية تحصل وإلى بداية تعود، مع أنها تبدو مزيجاً من نهايات وبدايات لا حدود لها غير السرمد.

إن علوم الكيمياء بمعادلاتها التي لا تحصى، تفسر اتحاد العناصر بعضها ببعضها الآخر، على مقاديرَ معينة الأحجام والأوزان، تعجنها الأرض بأمواه السحاب، وتشويها الشمس بدفقاتٍ أخرى من نارٍ وضياء... وهكذا يبدو الوجود كله في سلسلةٍ سرمدية من معادلات، ليس لها أمٌّ بانتداءٍ غير الكيمياء، وليس للوجود ـ بشكل مطلق، بكل ما فيه من عناصر تتماوج وتتخارج بها المعادلات ـ إلا تأملٌ خاشع أمام القوة العظيمة والمقدسة، والممسكة بكل هذه العناصر، تملأ بها مدارج اللامنتهى في

هذا الوجود. . . وإن الله ـ وحده ـ هو مصدر العلم المجرد، تمسح به الأمة عينيها حتى تستنير.

هكذا نرى أن كل ما تحتاجه الأمة لبقائها واطراد نموها قد جعله النبي الكريم هماً من همومه الدائمة، وأحاطه بعنايةٍ مدروسةٍ، تنال منها الأمة ـ لا في يومها الحاضر وحسب ـ بل في كل يوم من أيامها الطويلة التي يجهزها لها الغد. إن الاختلاءات المعمقة بالدرس، مع الذات، ومع علّي شقيق الروح ورفيق العمر، كان لها رصيد مميَّز بالتحسُّب، والاحاطة، وبعد الرؤية، وصوابية العرض.

لقد رأى النبي الكريم أنَّ الأمة التي جمعها بجهده وسهره، سيضنيها الانفراط إن لم يتعهدها الفهم، والعلم، والسياسة الصادقة والحكيمة، وكلها مدارج مدارج، لا يأخذ منها إلا الذكاء، والمران، والتمرس الفاعل.

الفهم نتاج العلم الصحيح، والعلم أوسع من المحيطات، وهو لا يستوعب إلا نذراً فنذراً مع المدى الطويل الذي يبدو أنه لا ينتهي، والأمة التي يليق بها عزُّ الخلود، فلتوسع له حلقات المدارس، ولتملأ موائدها من ثراء حقوله، سيكون لها ـ بعد كل قرنٍ من قرون السنين ـ ما يدل إليها بأنها صادقة في تلمساتها، وأنها حية في تعهداتها، وأَنها بالحق والنبل تستعين وتستقيم.

أما السياسة الصادقة والحكيمة، فهي المتجردة من حقيقة الفهم المؤمن بأن الحياة هي الخير المروّى بالجمال، وبأن السائس هو العفيف الذي لا طمعٌ فيه، ولا بخلٌ، ولا جشع، ولا ظلم، ولا عيب، ولا نكد وهو الإنسان الصحيح المميز بالخلق المغلَّف بنعمة الخالق. . . إن السياسة تلك هي افراز الحق المكثَّف في رجلٍ يمثل رأس الدولة في رعاية الأمة، والسير بها في سبيل المراقي: بعدلٍ، ومساواة، وحقٍ، ونظافةٍ،

واستقامة... إن المران الطويل، والتمرس المصحَّح برفقة خلفٍ لمخلوفٍ صادق في عهدة الإدارة، يضمنان وصول جدارة القيادة من رجل إلى رجل عن طريق تسلسل الخلافة التي تكون صدقاً موصولاً بصدق.... وها هي الأمة ـ والحالة تلك ـ ترتدي في كل مرة عباءةً جديدة من دون أن تشعر أنها غيّرت زيَّهَا، وهي تمشي على ذات الطريق.

وتمَّ الرأي في الاختلاء الرزين على تعهد الأمة تعهداً مركزاً على اثني عشر إماماً، يكون ركنهم الخليفة الأول، وهو الإمام علي متمرساً تمرساً كاملاً بالمخلوف الذي لا يزال يرعى الأمة.

الإمامة

لقد اكتسبت الإمامة مع الوقت معاني كثيرة لا شأن لنا إلا بواحدٍ منها وهو الخلافة ـ أما المخلوف فهو النبي لكريم بعد أن تحمله السحب إلى الرفيق الأعلى، تاركاً للأمة رسالة طرّيـة العود، ستكون ـ من دون شك ـ محتاجةً إلى مدربين يتعدونها بالرعاية حتى يمتن عضلها، وتتوضح مقاييسها، وتنجلي معالمها الناهدة بها من الأغوار.

إن في البحث السابق تلميحاً مقصوداً عن أهمية الرسالة وعن كيفية انبثاقها من جهد الأمة ومن ثقل معاناتها في الحياة، عبر المديد من الحقب... وها هو الذي تجمعت إليه هذه المجاهيد يدرك أن الرسالة انبثقت من واقع الأمة الراهن، ومن حاجتها الضاغطة إلى لمّ شعثها من انفراط قبائلها، وتوحيدها في جدلة واحدةٍ تنهض بها إلى الصف الاجتماعي المنظم.

لقد أصبح لنا شبه اطلاعٍ من اشارات البحوث الواردة في مضامين ما مرَّ بنا حتى الآن ـ على أن الرسول الكريم هو الطاقة الفاعلة والمستمرة في تجهيز الجزيرة بكل مقوماتها الحياتية والفكرية والروحية على السواء. لقد قبلت ـ بعد جهدٍ مضنٍ ومرير ـ ما قدمه لها اليوم، وها هي تظهر به ـ في الساحة المحترمة ـ أمةً ملمومةً على ذاتها: دينها التوحيد في ظل رسالة هي

جوهر التوحيد، وعليه أن يجهِّزَ لها ما يجب أن تقبله في الغد، من مقومات ضابطة، تحفظ بها كينونتها الجديدة، واستمراريتها النامية بالتنظيم العاقل الواقي من ردَّةٍ عقيمة تردها إلى الأمس الذي كان شارداً بها من غيهب إلى غيهب!.

لم يغب زعماء سياسة الأمس عن عينه المبصرة، فإنهم هم ذواتهم لا يزالون بين يديه يختالون فوق الساحات المذنَّبة بغرورهم الأصفر، أنه يلمحهم يقرأون الحروف، ولكن الرمد في عيونهم هو الذي يقرأ، وهل تصح قراءة بيضاء بعينٍ يقرّحها رمد؟!.

وهكذا الأمة كلها المدعوة إلى أن تقرأ: لقد تحرك الشوق الكامن فيها، ودفعها إلى أن تقرأ. ولكن الجهل الهاجع فيها ـ من مخلفات ساسة الأمس ـ لا يوضِّح لها ما تقرأ.

نذرٌ قليلٌ من فهم ما قرأته الأمة في الكتاب فَعَلَ في الأمة فعله العجيب، فكيف يكون الشأن لو ازداد هذا النذر من الفهم إلى ضعفين، أو إلى عشرةٍ، أو إلى مئة من الأضعاف؟ إن للأمة ـ في نسبة مثل هذا المقدار من التفهم ـ مقادير أخرى كثيرة البهاء، تجعلها في مكانة جلى من القوة والصفاء... إنه حلم النبي في دفع الأمة ـ بالرسالة ـ إلى هداية أمم الأرض وزفها إلى الجنان.

لن يهدأ في الرسول جهد مكدود ومقدود من عزمه وبعد نظره، ولن تحرم الأمة من وسيع يومه ومديد غده، فالعدة التي حضَّرها ستجعل اليوم فتيلة الغد، والغد زجاجة المصباح، تغرف منه الأمة نورها الوضاء.

كل شيء جاهز في التحسب الرزين، فالإمامة التي كل معناها ـ خلافة ـ هي في أمتن ما تكون، فعليٌّ ـ وحدهُ ـ أساس المحراب، وهو ـ وحده ـ سقفهُ وسناده، وبهاؤه.. إنه الإمام الخليفة، إذ تحمل السحب المخلوف إلى السقوف العلية، تاركة للأرض من ينوِّر لها الممرات،

ومن يفتح لها الكتاب ويعلمها فتح الكتاب.

سيكون من علي نسل من القراء الخلفاء، وسيكون الأبناء عديدين في التدرج المبارك، وسينتخب منهم الأنسب للتخريج ـ إماماً عن إمام ـ في خلافةٍ تصل الفرع بالأصل، فارضةً على كل وليٍّ منهم تلبية حاجة الأمة، وكيفية ابتكار سّدها بأي نوع من الممكنات، وهكذا فإن الأمة ستناديهم إلى حاجاتها فيلبون لها الحاجات... سيلبونها ـ كلٌّ بدوره ـ في بقر العلم إذا انكسف منه عنهم شعاع ـ سيبلونها بوصلة الخيط إذا انقطع الخيط من غزلٍ قميص تلبسه في العراء، سيبلونها بازالة الضيم إذا ارتجفت بالظلم أنملة القضاء... وسيلبونها كلما اتجهت إليهم برجاءٍ فلا يسكت واحد منهم عن تلبية الرجاء.

إنهم اثنا عشر في الخط المرصوص في تواصل الخيط، حتى إذا انتهى بهم الخط، تكون الأمة قد اكتفت في تدرجها واحتاطت بالتأمل والتكامل المليئين من نور الرسالة، وهي كلها ـ عندئذٍ ـ خليفة الرسول العظيم، وراسخة في الرسالة: ثقافة، وحضارة، ونوراً، وإيماناً.... إنها الأمة التي كان يحلم بها النبي العطوف، لتكون في الأرض جنته المثيلة بالجنان الزاهيات.

ولكن الرسول العليم، كان يرسم هلعه الكبير على أمةٍ لم يتمكن ـ هو بالذات ـ من ترميم كل ثلمةٍ فيها، فاكتفى بالنهج أن رسمه على اللوح، ونفذه بمن فهموه ولبوه، ليبقى حاضراً في الذهن: بأن الأمة إذ ما تستوعبْ الرسالة بكاملها، وتطبِّقْ نهجَهُ بحذافيره، تصلْ ـ من دون ريب ـ إلى نظافة مثلى تحضِّرهُا لأن تكون وسيعة المعاهد والنوادي، ونادرةَ المحاكم والسجون.

إن الأمة الآن تصغي إلى صوت جابر بن عبدالله الأنصاري يبلغ الفتى

اليافع محمداً وهو الشبيه بجده الرسول، بأنه مدعو إلى تلبية حاجة الأمة في يثرب، مدينة الأنصار، وهي المحرومة من العلم، حتى يتأهَّبَ ويوسِّعَ الأبواب لمعهدٍ يمد الطلاب فيه بمعلومات عن علم الحساب، والفلسفة، والتفسير، والجغرافيا، والطب، والكيمياء... ألا نراه سيلبي عندما يتطلب منه أن يلبي؟!.

الأمة

إنه هو ـ بحثنا السابق وعنوانه «الإمامة» ـ يسوقنا الآن إلى بحث آخر بعنوان «الأمة»: هنالك كلمات أربع، يشتق بعضها من بعض، بمعناها ومبناها، وجميعها يكتسب معنى الحضانة، فالإمامة، والأم، والإمامة، والأمومة، يجمعها إلى بعضها توضيب واحدمن العطف، والحنو، والالتزام، ويفصلها عن بعضها حجمٌ متفاوت المؤديات: فالأم تحضن عدة أبناء يحرضها عليهم عطف الأمومة، ـ والإمامة أم أخرى دافئة الأضلاع، تحتاط بعدة أولياء يَحترقون بلهيب رسالة ـ أما الأمة فهي كنه الأمومة، ومجموعة الأرحام في مجتمع إنساني نما في جغرافية من جغرافيات الأرض تضبط كلٍّ واحدة منها حدودٌ أرضية (صخرية، أو صحرواية، أو مائية بحرية.) أو انفتاحات تمتد بها وتطول، ولكنَّها توصلها ـ في النتيجة ـ إلى تخوم تنكفىء بها إلى ذاتها في العمل والتفاعل وتنظيم الاكتفاء.

لكل مجتمع من هذه المجتمعات البشرية عادات وأنماط بيئوية مسحوبة من مناخات أرضه، لتبقى مكرورة ومسطورة في التقاليد المنحفرة في سليقة أبنائه وسجاياهم، منذ آلاف السنين، وقد يستمر هذا الحفر في النفوس إلى أُلوف أخرى من الأمداء، من دون أن ينفعل أيّ مدىً منها بأيِّ تطويرٍ أو أيِّ تحوير...

لا يقصد البحث احاطة تامة بتحديد الأمة تحديداً علمياً وموثقاً

بماهياتها المرتبطة بالحياة، وبكل ما يتعلق بعلم الاقتصاد، وعلم الجغرافيا، وعلم الاجتماع. إن لذلك اختصاصاتٍ مطولة، سيشير إليها إمامنا الباقر عندما يشرع أبواب جامعته في يثرب. فيشرق علم، ويشرق صواب.

يكفينا من التحديد إيجاز يشير إلى أن الأمة كائنٌ حي، وهي ضرورة حتمية لنشأة الإنسان، أما قيمة إنسانها فإنها تتوفر غالباً من نسبة ما تتنشَّطُ به الأمة من فاعليات متحركةٍ منها، تكون مدداً وذخراً لهذا الإنسان، تدفعه لتحقيق معين، يجهّزُ به أحلامه وأمنياته، أو فلنقل: طموحاته التي تكبر بالجهد والمثابرة. سيكون العلم ـ وحده إذ يتيسر ـ نواة الجهد في لولب المثابرة، لا الحظ المقرَّظ، ولا الجهل النائم في عين ضب!!.

ها هي الأمة المتربعة فوق مساحاتها الطويلة والعريضة، تتطابق عليها المواصفات الواردة في متن هذا البحث: إنها الجزيرة العربية، وقد أنجبت فتاها العظيم المؤمن بها طاقة فاعلة في حيز وجوده، وبأنها هي التي انتجبته من صميم ضلوعها ومن صميم معاناتها الطويلة في ردهات الزمان، ومن حاجاتها الملحة إلى كل تطوير وتحوير يوجّه إنسانها توجيهاً آخر يحرره من صباغاته المزمنة، ومن عاداته وتقاليده المترسبة فيه من قبلية جاهلية أنتجتها المساحات السائبة بين الحرّات والأحقاف والرمول السائلة في وهج الدهناء وربعهاالخالي، ليكون له ـ من واحاته ـ قسط منديٌّ، يربطه بحقيقة الانتاج الإنساني الموجه بالعلم والرشد والفهم الحي.

لقد أدرك النبي الغائص في لجج التأمل وعباب الوحي، أن الأمة الملقوطة بصمت يابس، هي أمته بالذات، وهي الخارج منها والمنتسب إليها، وهي له في الذخر وفي الشح، فإذا كان لها أن تقبله فهو الحي بها والجائل بها فوق المساحات، أو إذا كان له منها ذلك العكس الحزين، فهو المهدور إلى زوايا الأمس، ورسالته هي الخائبة المشلولة في العتمات!!!.

وانصبَّ النبي الشبعان من نعم الغوص، ينجي أمته من الاستغراق في عتمة الريب، مقدماً لها حروفاً تؤلف منها كلمة الحق تمشي بها إلى رصف الذات في مجتمعٍ سيقرأ اسمه مكتوباً على اللوح.

ولبته الأمة ـ كما سبق وقلنا ـ وإن تلبيةً كثيرة الاجتزاء، وراح يتنقل بها عبر الانفتاحات ذاتها التي كانت تعبرها في كل ماضيها السحيق، حاملاً أمامها رسالة تسهل العبور: لا إلى الجوار المألوف وحسب، بل إلى أمم أخرى، غريبة اللغات، وبعيدة الحدود، وقد استهوتها الرسالة بما فيها من حب ومساواة ومؤاخاة، ومن إيمان بالله ينشر الطمأنينة في الروح، ويبلسم النفس بالرجاء والعزاء... إن في الرسالات السماوية جاذبيات مشتركة، تجعل أكثر من أمة واحدة تدين بها وبهاترتّل صلواتها.

كان التطرق إلى هذا الموضوع من أجل الإشارة إلى أن إيمان النبي العظيم كان بليغاً بالأمة التي هي أمته في الجزيرة العربية، وأن حبه وإخلاصه لها هما المفروضان في التحتيم، وأنَّ الرسالة والإمامة هما لها في التنزيل والتنظيم، أما العلم فهو الذي يترقبها تحتازه فينجيها من جهل يشلّ نهضات الأمم. إن الإمامة المنظمة شددت على العلم يبتدىء بتفجيره إمامٌ يشعر بأنه حاجة مستمرة لنجاح الأمة والرسالة اللتين تركهما الجد الكبير والغيور، في بال كل إمام يلتهب بالرسالة وبحب الأمة التي هي أمة محمد.

آل البيت

إنهم - بالتخصيص - علي وفاطمة والحسن والحسين. إنهم البيت الذي «شاءَهُ الله ليذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيراً».

لماذا هذا البيت تتخصص له النظافة والطهارة؟ وليس سواه من البيوت التي يعمر بها مجتمع الجزيرة؟ أليست الأمة كلها الآن هي بيت النبيّ، يشمله بحبه وبولهه، ويسكب عليه كل حرف من حروف نجاواه؟.

ولكن البيت الذي أعده النبي هو - في وسيع خلده، ورحيب جنانه - بيت الأمة بالذات، ينظفه من الرجس، يرويه بالطهر، ليكون - في المطلق - هالةً مثلى، تنسج كل الجزيرة بيوتها على طرازه المنقّى، والمصفّى، والمروّى بالجمال... إنها الأمة بالذات، ينثر عليها النبي الكريم، في كلّ لحظةٍ من اللحظات، ألغازاً ورموزاً وآياتٍ، حتى يكون لها - أبداً - ما يشغلها عن غزل الترهات، بتفتيق الألغاز من مخائبها، وحلّ الرموز من أصفادها، وتسديد التبصر بالآيات وأبعاد مراميها...

لو أبصرت - فعلاً - هذه الأمة كم هو عظيم هذا النبي المرتفع من عتمات ليلها، ليخلصها من كل عتمة تتكسّر فيها زجاجة المصباح!!! لما كان لها أن تفوِّت لحظة واحدة في الإصغاء إليه، لأن في اطاعته جدوى تتخبّأ في عتمة اللغز أو في لطوة الرمز، ولكنها - في غدٍ أو ما بعد غد - تنكشف الجدوى عن لؤلؤةٍ يحتاجها العقدُ الذي ستزيّن الأمة به - في الغد - جيدها.

إن حائط بيت الأمة الذي راح النبي إلى بنائه كان في رهصهِ الأول، أي في أول مدماكٍ من مداميك الأساس، ولم يجد للزواية الركيزة إلا حجراً مسحوباً من مقلع الصوأّن. . . . ومقالع الصوّان في جزيرة الرمل مرذولة، لا لأنها المكفولة في تحقيق المتانات، بل لأنها ليست سهلةً - كالرمل - في جبلة الطين، وصلبة تحت مجسة الشاقوف، ويهرب منها البناؤون، ففي خشونتها ما يقطع الخيط ويُقَرِّض الإزميل!.

ولكن النبيّ المتين ببنائه النفسي - الروحي - النبوي، كان يفضل بناء أمته بناءً متيناً لا رجس فيه ولا أيٌّ من عهن، يدعمه الطهر في المسارات المنزهة، ويرمقه التاريخ بعين من غدٍ لا يرقى إليه غير المرسخين بالصدق، والعفاف، والنزاهة المثلى، وكلها مزايا، تهيمن عليها وتفرضها متانة في العقل، ومتانة في الرصد، ومتانة في اللبّ، ومتانة في الروح.

لم يجد النبي الكريم في تجواله الميقّن بالحق غير عليٍّ في فتحة الباب، وكشفة المقلع، فتناوله بباعيه العريضين إلى صدره الأمتن، وجدله جدلاً بابنته فاطمة الزهراء، ليكون من البناء المرجوّ فرعٌ مطيب بالحسنين. . . يوماً بعد يوم. ويتعدى أساسُ البيت رهصَهُ الأول. . . سيكون عليٌّ رأسّ الزاوية. . . لأن الصوّان في عملية التأسيس كلزوم ما يلزم. . .

أليس حيفاً على النبي - وقد احتضن الأمة كلَّها - واستنجد الله من أجلها حتى ينجيها من رجس ذميم يمرغها فيه اختناقها بحبال قبلياتها؟!! أجل، أليس حيفاً - عليه - وقد اعتبر الجزيرة كلها قبيلة واحدة في مناعة الإسلام أن يلتقط بعلي، ويغسله من رجسه، ويمسحه بأفاويه الطيب، ويلفلفه مع ذريته الطالبية بوشاحات الخلافة على أمة المسلمين، لا لأي سبب من الأسباب، بل لأنه يلبس العباءة الخشنة المنسوجة على المكوك الطالبي!!!.

حرامٌ على القلم أن يؤلف من الكلمة سهماً يشير بالحيف إلى نبيِّ المسلمين: فهو المتكلم بلسان الحق، ولسان التنزيه... أما علي، فإن المزايا التي هي جمع باقاتٍ في غزل عباءته، قد عَيَّنَتْ لحمته بنبيِّ المسلمين... سيلبث طالبياً يجري في عروقه دم الجدود، ومن أبهاهم شيبة الحمد. أما العبقرية التي امتصت الرسالة و دمجتها بسجاياه، فهي التي شددت الموصلة في اتجاهها نحو لملمة القطب.

وقطب علي أوسع بكثيرٍ من قبلية... انه فضاءٌ من قيمٍ تأخذ بها أمم عديدة من أمم الأرض، وتتحضّر. أما أن يأخذ النبي علياً إلى صدره في عيد الغدير، مشيراً إليه بأنه نعم الوليُّ. ونعم الخليفة، ونعم الضمانة للأمة في كنف الإسلام... فيا عجباه، ويا عجب التاريخ يكتبه الصدق والمنطق، ويا عجب السماء، ويا عجب التراب المنهال على أضرحة الأولياء والأنبياء الصادقين... لو أنه لم يفعل!.

إن هتاف النبي معلناً نظافة أهل بيته من الرجس، وتطيُّبَهُمْ بالطهر بصيغة المطلق، كان اشارةً من اشاراته الأنيقة ـ كأنها السبابة الممتدة من كفه نحو علي بأنه الطاهر القادر على سياسة أمةٍ بتخليصها من كل رجسٍ، وتطهيرها تطهيراً ـ إن المولعين بالحق يتمكنون من نشر راياته، ولن يكون لخفاشٍ قولٌ في سطعة النور. لقد كان اعلان النبي بطهارة أهل بيته، رمزاً معلقاً على رأس بنانٍ من بناناته الناطقات.

وإن تعليق سياسة الأمة بخيط منضَّدٍ على مغزلٍ مستقيم، معناه أن إمامةَ اثني عشر هي الخيط الممدود والمنقى من النسالات ومن العقد، وهو المنقول على المغزل الصحيح. ولا يشتدُّ إلا به الحبل السليم... إن الغزَّال هو عليٌّ بمغزله القويم، وإن الغزالين من بعده ـ على مدى محترم من محطات السنين ـ هم من خطه في مهلة التدريج، وهم المتناوبون على ضبط النسيج، وهم المصطفون حول فوهة البئر، يقدسون الحبل والدلو

الغارف من القعر ريّاً لا رجس فيه ومطهراً تطهيراً.

لماذا لا يكون لنا هذا التيقن؟ بأن الرسول ـ وقد ألمَّ بآيات الكتاب ـ هو العليم بما يجول في الضمائر، وبما ينام في طيات الصدور!!!.

إن يكن لنا أنه نعم العليم ونعم الفهيم، فما هذا الجهدُ يبذله: تارة في التصريح، وطوراً في التلميح، وأحياناً كثيرة في الاشارات المصبوبة في الألغاز المطوية في الرموز؟!!!.

ولكن النبي العظيم الفهيم العليم، قد سكب كل قرارته في الواقع الناجز المعلن عن ذاته:

إنه لك أيتها الأمة الملمومة من شعاب الأمس، كتاب فاقرئيه، ونهج فارسميه في صفحة الضمير، وما لم تفهمي الكتاب بمحجريك، فأي نفعٍ لذراعيك في حمل الكتاب؟!.

وما لم تحفري النهج الجديد بأصفريك، فأي نهجٍ لقدميك تعودان بك إلى الرمل في هاتيك السهوب؟!!.

سيكون لك ـ يا أمتي ـ أن تقرئي الكتاب بعينٍ كعين علي، وأن ترتسمي بنهجٍ قد ارتسم به الإمام علي... فعليٌّ هو الكشّاف بالعين الوسيعة، وكذلك هو النهّاج في المرامي المنيعة... فليكن الذين يقطعون بك الطريق، من معدنه ومن لونه، ومن فسحة عينه... سيكون لك يا أمتي عن الطريق السوي شرود!!!.

ولكن العلم الذي ستتوسع به الخطوط العريضة عبر التجارب الطويلة والمريرة. سيرشدك إلى نهج علي، وهو المشحون بصدق المزايا!!!.

إن المزايا ـ وحدها ـ في كتابي، سيقرأها عليك من هم امتدادي في خط علي... فانتظري الغد ـ يا أمتي وتثبتي به نظيفاً من الرجس، مليئاً بالعلم، والحق، والنزاهات المطهرة تطهيراً.

ألا فليكن لنا رؤية وتجرد واتزان كلما وجهنا الظن نحو صف الإمامة... سيكون لنا من التجرد المحرر من الهوى أن نراه خطأً عريضاً وبهياً، تنمو به روعة الإسلام، بحيث تنزهه الطالبية فيه من دون أن نعتبرها إلا وصلة جليلة ومطهرةً، تدفع الروعة تلك إلى حقيقة التكامل وصفوة الانتظام.

ليست الطالبية الملتحمة في بهجة الصف من غير الطالبية المتدهن بها الرسول الغارق في بحار السور... إلا فليحترم تواصل الموج في معارج أليم أيٌّ من واقف على الشط، يسبر الغور بعصاً عرجاء لا بمجذافٍ مطيب.

لقد قدم الرسول نفسه للأمة وما بخل عليها لا بعرقه، ولا بدمه، ولا بروحه، ولا بكل ما في جوهره من طالبية عريقةٍ بالمكرمات. فأي بذل نفيس لا يحسب له في وصلة البذل، وهو يقدم للأمة حبلاً طويلاً من أصلابه المتمرسين به في مدراج القرآن، ليكونوا ـ من بعده ـ معاول ومساند، يتعهدون المسيرة ويتحملون مواقع الضيم، ويرقون بها إلى التحقيق المعين في مقاطع الآيات؟!.

أجل ـ إنهم طالبيون، ولكنهم من الصنف المتصلب بالممارسات ـ أباً عن جد ـ وهي الممارسات التقية لا تلك الموسومة بالقبلية... ليكونوا خير من يتمكن من ايصال الأمة إلى المراحل المشتهاة... ولقد سخا عليهم جدهم الرسول، ومحضهم كل حبه، وكل أشواقه المديدة، حتى لا يخيبوا في عمليات التمثيل المشقوق في ضلع الرسالة... لقد جعلهم القصد لحمةً في التسلسل، ولحمةً في الشوق والبث، ولحمةً في الاستحالة...

لقد استحال كل واحد منهم شبهاً بجده الأعلى، إن الشوق إليه،

والخشوع الكامل، أمام ذاكره، والتقيد المطلق بمضامين كتابه، وشمهم بالشبه، سواءً أكانوا قد ولدوا بين يديه فامتصوه بأعينهم، ومسامعهم، وكل حجاهم كالإمام علي، والحسن، والحسين. فاستحال كل واحد منهم شبيهاً به: في تصرفه أو في تحدثه، أو في تفرده بصياغة المواقف والنهوج، أم كانوا قد ولدوا بعد انتقاله إلى المجال الرحيب... حَسْبُ الإمام علي بن الحسين من جده الرسول يحصل على شبهين: واحد، أغرقه في لقب «زين العابدين» وآخر لأحد أبنائه كان مرسوماً في خطوط ملامح الوجه، لقد أخذ بهذه الملامح الشبيهة بالرسول الصحابي جابر بن عبدالله الأنصاري...

يا طالما نزلت في هذه الأذن الذكية انطباعات رضية حملها هذا الأنصاري وراح يرشها على المؤمنين، كأنّها ثوابٌ لهم، لأنهم صدقوا الوحي يحمله يقين الرسول. وأطاعوا كل همسةٍ همس بها بالُ الرسولَ... يا لمحمد الباقر يهمس باسمه جده الرسول.

الإمام الحسين

إنه في الوقت الحاضر إمام المسلمين، وسيد البيت، يرعى فيه كل الوشائج. . . بالأمس نادته فاطمة بنت أخيه الحسن حتى يبارك طفلاً لها وفد جديداً إلى الحضن الإمامي، لقد توسمت فيه كثيراً من البشائر، ولقد باركه جده الإمام وسجد لله تعالى طويلاً أمام ملامحه البهية، ولقد سمعناه ساعة تلك يطلق عليه اسم «محمد الباقر».

في البيت الآن إمامان يستظلان عيني السيد: واحد منهما في الثانية والعشرين من عمره، يدرّجه أبوه لاستلام الإمامة بعد أن يكون قد سقاها ـ هو الحسين ـ كل صبيب دمه! إن اسمه الآن عليٌّ بن الحسين، وقد وجهه الإمام منذ عشرة أيام لزيارة عمه ابن الحنفية الموجود حالياً في اليمن، أما زين العابدين فهو هاجع في اسم علي إلى ما بعد أن يشوي ضلوعه وقيد الحزن، ويشرب الآسى من عينيه، دمعهما الأحمر!.

أما الإمام الثاني فهو الذي يفرض الآن أوامره على جده الحسين المتربع أمامه في بهو الدار في يثرب. إن الصغير البالغ ثلاثاً من عمره، يلفُّ من الوراء عنق الحسين بذراعيه الطريتين، من دون أن تمنعه الثرثة من اعتلاء الكتفين المحدوبتين أمام غنجه، ومن الهبوط عنهما إلى الحضن المكفوف بزندين يأخذه بهما الجدُّ غمراً وجساً.

إنها حالة من حالات الهيام المتحكم بالمشاعر، تستبد الآن

بالحسين، وهي ترجعه ـ بالذكريات ـ إلى عهد طفولته الغنية بالمداعبات والثغثغات كان يهرقها هرقاً على جده الرسول، في أية ساعة من الساعات كان يلقاه فيها: في زوايا البيت، أم فوق الأريكة الممدودة في صحن الدار، أم في لولبٍ من لوالب الزاروب المؤدي إلى بوابة المسجد، أم في المسجد بالذات حيث كان الرسول يعتلي منبراً مشدوداً من لبن الطين، ويحدث الناس ـ من فوقه ـ عن الجنان الفسيحة التي تنتظر المؤمنين الصالحين.

ولكن الرسول قد ترك فجوة كبيرة في بال فتاه الحسين، عندما غافله وغاب خلف طيات الفضاء!!! لقد فتش عنه كثيراً ابن الست سنين، ولم يجد أمامه غير طيفٍ محجوب خلف هالاتٍ وهالاتٍ، لا يكاد يدنو منها حتى تنشقَّ وتذوب، ليبقى ـ وحده ـ غارقاً في جفوة الفقدان، كأنَّ الجو كله الذي ينام فيه ملفوفٌ بعتمةٍ سميكةٍ لا نجمة فيها، ولا قمر ولو بقرنٍ ضئيل من شعاع!.

بعد نصف ساعة تعب الفتى الصغير من حفيف ثغثغاته، واستدفأ حضن جده الحسين، وأغمض عينيه ونام، وكذلك أغمض الحسين جفنيه على ضناه الكبير وهو يقول: يا طفلي المندَّى بالعبير كم يكون عمرك عندما تصحو عيناك من قطب النوم، فلا تجد حضن جدك الحسين يهفو عليك، كما كان يهفو عليَّ الرسول!!!.

نم الآن يا طفلي ملفلفاً باسم جدك الذي يقرئك السلام. إن لك غداً تعي به ما هو موكول إليك، أما ما هو موكول إلي، فالغد الآتي سينشره عليك.

حزن كربلاء

في ليلة ظلماء انسحب آل البيت من يثرب نحو محارم الكعبة في مكة المكرمة. لقد ضاق الإمام الحسين ذرعاً من الوليد بن عتبة والي مدينة يثرب، يأتيه كل يوم بعد يوم، طالباً إليه مبايعةً بالخلافة ليزيد بن معاوية.

إن تواتر الأخبار يرجح أن الوليد بن عتبة ـ وإن يكن حربيّاً من بني سفيان ـ كان يعطف على الحسين، ويحاول أن ينجيه من أية أذيةٍ يهدده بها يزيد، إن لم يسارع إلى مبايعته بالخلافة.

لقد كان الحسين مدركاً فداحة الورطة، لهذا راح يماطل الوالي بوعدٍ حائرٍ بين الرفض والقبول حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وأما الداهية مروان بن الحكم ـ وقد اكتشف ما يجول من ضعفٍ في عزيمة الوالي ـ فإنه بادر إلى تنبيهه بأن سرعة التنفيذ لا تنجي عنق الحسين من القطع، أكثر مما تنجي الوالي من الإقالة... لم يغب دهاء مروان عن فطنة الحسين، فحزم أهل بيته في هذه الليلة الصامتة، وانسحب إلى مكة، ففي محارم الكعبة متسعٌ من الوقت للتبصر والتدبر.

جل ما حصل بعد الانسلال من يثرب:

عزل الوليد بن عتبة من الولاية. تعيين مروان بن الحكم والياً مكانه. نجاة الحسين من ضغوط المبايعة، وحصوله على وقت يتخذ فيه حقيقة القرار.

أما الحاشية في سرى الليل، فكان نجمها طفلٌ تجاوز قليلاً الثلاث سنوات، وكان يأبى أن ينام إلا في حضن جده الذي راح يعلمه رصد النجوم!.

وحزن كربلاء؟ إنه الحزن الكبير تحيي به الأجيال ـ في كل سنة ـ عاشوراءها بتطييب ذكرى الحسين، أما كربلاء فهي الأرض التي اختيرت لامتصاص دم الشهيد.

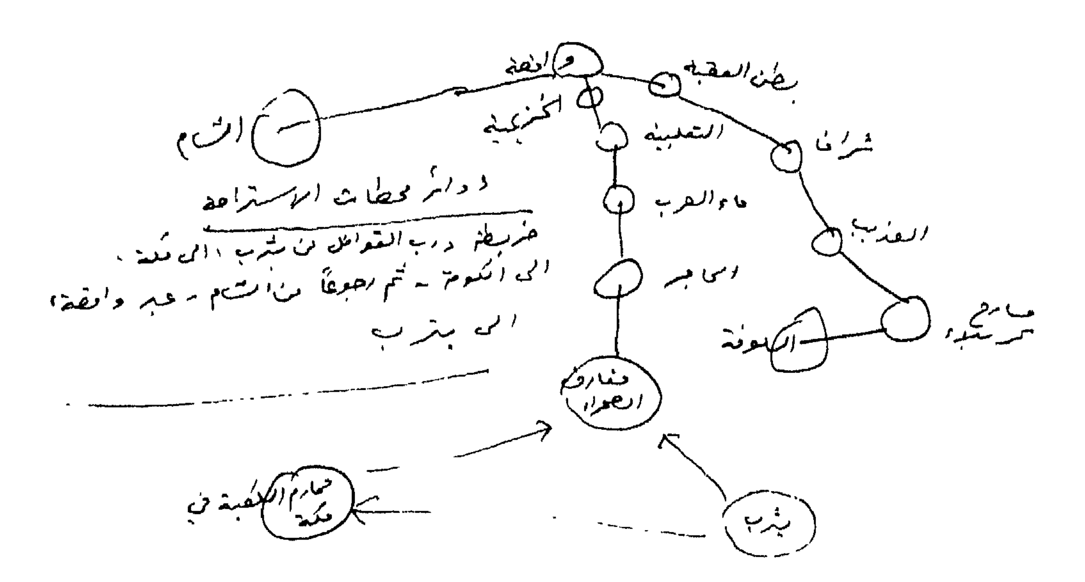
لقد تراءى لي أن هذا الحزن قد ابتدأ يمشي خطواته البليغة مذ انسلَّ الحسين من يثرب إلى مكة، ثم من مكة إلى كربلاء ـ أما الذين تلبسوا وطأة الحزن العريض وأودعوه الأجيال لتخليد ذكراه، فإنهم علي بن الحسين، وقد انتقلت إليه الإمامة، ومعه لفيف آل البيت، لا سيما الفتى محمد الباقر، وقد بدأت ترتسم في باله كل خطوط المجالات البعيدة والتي تشير إلى أن أسباب حصول مثل هذا الحزن المرير ليست صدفةً كربلائية بصورة الحصر، إنما هي نتيجةُ كمونٍ ترسُّبي في ذهنيه الجزيرة التي اختطفت الرسالة من صدر نبيّها. وسدّت آذانها توّاً عن التعهدات المقدسة لحمايتها واستمراريتها فاعلة!.

لقد أكمل الإمام ابن الحسين مسيرة أبيه المتلزمة، من كربلاء المصبوغة بالدم، إلى شام يزيد الذي فجَّر وريد من اقتبل الإمامة، ولم يرض عمن يزوِّر الخلافة!!! ولقد كتب عليه أيضاً أن يرجع من الشام إلى الكوفة، وحزينا حزيناً من واقصة، عبر كل محطات الصحراء المشوية بالشمس، إلى يثرب، حيث اكتملت إمامته الساجدة، واتصفت بزين العابدين.

أحببت أن أسمي الخط الذي انطلق من يثرب و العائد إلى يثرب، بالخط الجغرافي، وبدا لي أن أرسمه رسمة جغرافية وبدون مقياس، تسهيلاً لتصورهِ والاطلاع عليه... سيكون للإمام الباقر ـ بعد ما يقارب

الأربعين سنة ـ أَن يتولّى الإمامة والجامعة اللتين سكب فيهما جُهدَهُ أبوه الإمام زين العابدين، وأن يوسع المناهل والمسالك في علوم الفيزياء، والكيمياء، والفلسفة، وأن يقرنها كلها ـ بنوع خاص ـ بخرائط الجغرافيا، وبمساطر ضبط المساحات والمسافات، وتنزيلها في الواقع الحيّ.

إن الخريطة التالية هي تصميم الخط الجغرافي الذي مشاه الحسين مع كل مرافقيه، بعد سنة بالتقريب من انسلاله من يثرب:



خريطة درب القوافل من يثرب، إلى مكة، إلى الكوفة، ثم رجوعاً من الشام ـ عبر واقصة ـ إلى يثرب:

إن المدة التي انعكف بها الحسين في محارم الكعبة لم تتعدَّ السنة إلا قليلاً، على ما أظن، ولكنها كانت بعيدةً في جناها ومؤداها، لقد تبسطت له كل أمور الأمة، وكل شوؤنها المادية والروحية والمستقبلية على السواء، إن الرسل الذين أوفدهم للاستطلاع والاستكشاف قد بادروه كلهم بالرسائل والافادات، ولم يترك ـ هو بدوره ـ رسالة واردة أو افادة وافدة، إلا ووفاها بالدرس والتمحيص...

من اليمن انهالت عليه الرسائل، ومن الكوفة والبصرة جاءه سيل منها يعد بالألوف، ومن القبائل المشرورة فوق فسحات الحجاز دفقت عليه رسائل التأييد، ومن الشام ـ حتى ـ تلملمت إليه رسائل تشكو الظلم السفياني وتلوّح بالمناصرة:

وكشف الدرس الصحيح والتمحيص الموزون كل ما جاء في هذه الرسائل البالغة في عددها اثني عشر ألفاً ـ على ما قيل... فقط، مئات قليلة منهم يحملون سخاء الطبع ويُجلُّون القضايا من شرعة الإنسان ـ ومئات قليلة أخرى يفضلون الطالبين، لأن منهم الرسول والآخر علياً... ومئات قليلة تربط الرسالة بالإمامة للتخلص من بني سفيان...

أما الكثرة الساحقة فإن وعياً متفاوت الحجم والوزن والقيمة يوزعهم فوق الرقاع، يفتشون عن عون وحماية ولا يجدونهما إلا في ظلِّ شيخ قرشي أو زعيم مجرّب!!! أما الرسالة، أما الإمامة، أما القضايا الكبيرة التي يتوسع بها العقل، والفهم والادراك في مجتمع الإنسان، فكلها ـ كالحريات ـ تدوسها العبوديات باقدامها المفلطحة، ليبقى الإنسان كما هو الكبش في القطيع: يكسر الراعي قرنه، ساعة يعطش الساطور إلى لحسة من دمه!!!.

جلُّ ما أدركه الحسين انتهى به إلى اتخاذ القرار الصارم المبنيِّ على مثل هذه الحيثيات التي راح يتغنى بها في سره وفي جهره وهو في محبسه

بين الرسائل المنثورة فوق الأرض، والافادات المرزومة فوق طراريح المقاعد:

ـ ما جاء جدي الرسول إلا من هذه الأمة.. ومن أجلها استنزل الوحي وصاغ الكتاب.

ـ ومن أجل صيانة الرسالة في صيانة الأمة والدفع بها إلى الصعود، شدَّ الإمامة وجعلها ـ حصراً بالرسالة وبالأمة ـ أداة رعاية وأداة بلوغ.

ـ ولن يكون للرسالة شأن، ولا للأمة وصول، ما لم يكشف العلم جوهر الرسالة، وما لم تستنر الأمة، بجوهر العلم.

ـ أولاً وآخراً هو الإنسان في حقيقة المجتمع، فليتعزز بكل ما يحرره من الجهلِ، والعِيِّ، ومعاني العبوديات... العلم وحده يحقق الأمة الواعية والمجتمع المنيع، ويمحو الذل، ويُنمي الكرامات من عنفوان الإنسان، ويمتعه بالرشد الصافي، ويعين له لون الحريات.

ـ إن الصفات الكريمة، وكذلك، هي المزايا المحصنات، تبني الأمة، وتصون المجتمع، وتنشر كلَّ ما في الرسالة من آيات بينات.

ـ يا لجدي محمد، يملي عليَّ الآن كلَّ عزم كان يطوف فوق فسحة جبينه وعلى أرنبة أنفه...

ـ سأرفضك يا يزيد من خلافة تنجسها... أما الأمة فلتشهد أني أبذل دمي من أجلها حتى تتعلم: أَنَّ الجبن ذل، وأن القبول بالذل يبيد الأمم... وأن العنفوان هو ابن الكرامة والإباء ـ وهو علم جليل باهر وهو الذي يحيي الأمم.

كان الحسين مغمض العينين عندما انتهى من ترنيم قراره، ولما فتحهما وجد أَمامه في الباب: علياً ابنه واقفاً في اطراقة صامتة، وحارس دارهم أسعد الهجري، مطرقاً أيضاً بصمته الخاشع، وما بينهما الفتى

الصغير محمد، وعمره أربع سنين. آخذاً بيمناه كف الهجري وبيسراه زند أبيه... إلا أنه كان مشدوهاً يصغي، وكأنه فهم كل ما أصغى إليه.

تبسم الحسين وهو يستوعب الثلاثة المراقبين، وقبل أن يفتح ذراعيه كان الفتى محمد قد انضم إليه، وجده الحسين يسأل:

ـ هل فهمت كل ما سمعت يا ابن جدك الرسول؟.

وسريعاً ما جال صدى صوته في جو المكان:.

ـ وهل يمكن أن لا أفهم نبرةً يهمس بها جدي حسين؟.

غمر الحسين حفيده، وتبسمت في عينيه دمعتان هادئتان وهو يقول لابنه علي ثم لأسعد الهجري:

ـ تَحَضَّره يا علي، ألم تسمعني الآن أنقل إليك حوض الإمامة؟! وأنت أيها الهجري المسكين السابح في قرارت نفسك، ارزم الحوائج وتأهب للسفر...

سنترك مكة ليلعب بها كيفما يريد وإليها عمرو بن سعيد بن العاص... وسنترك محارم الكعبة، ليكمل الرقص فيها ـ على هواه ـ عبدالله بن الزبير... وعندما ينتهي الهزيع الأول من هذا الليل نغذُّ السير نحو الكوفة، حيث ينتظرنا طيف الإمام علي على بوابة المحراب.

لم تكن الرحلة التي قام بها الحسين من مكة حتى الكوفة في العراق مجرد نزهةٍ للترفيه عن النفس، إنما هي ـ بحد ذاتها ـ مشقّات مضنيات. تشويها الشمس بدفقات من سعير، وتمطُّ بها المسافات من ليلٍ ساهرٍ بالنجوم، إلى ليلٍ لا يداعبه نسم... وتبقى المحطات على طول الطريق، توفر للمسافرين بعض متعةٍ، ونوعاً آخر من راحةٍ يستأنفُ بها نمط المسير.

إن التوقف مع الحسين في بعض المحطات الممدودة بين مكة والكوفة ممتعٌ بدوره، وفائق الأهمية، بنسبة ما يوضح لنا القصد من اقامة

الرحلة، وبنسبة ما حضرت الرحلة من انطباعاتٍ في نفس فتىً عمره أربع سنين ـ يطوف في قسماته شبهٌ بجده الرسول ـ إن شوقاً نادراً ومبكراً كان يوسع فيه مجالات الفهم والاستيعاب: ها هو، في الرحلة القاسية، لا يفارق جده الحسين، يصغي إليه وإلى كل من يحاروه عند التوقف للاستراحة فوق محطات الطريق. لم يكن له ـ مثلاً ـ أن يلمَّ من الحوارات بأبعادها ومراميها الواسعات، إلا أنها كانت تترك ظلاً ـ في عينيه ـ له من وطأتها وفرة اللون.

(١)

في أول محطةٍ بلغتها القافلة النازحة من مكة ـ قبل منتصف الليل ـ ألقى القوم رحالهم، مع نهوض الشمس... إنها محطة «التنعيم». بلغ المحطة على ظهر جملٍ أغبر واحد من بني أعمام الحسين ـ عبدالله بن جعفر ترجَّل وعانق الحسين وهو يلهث في لهفة القول.

ـ أستعطفك بالرجوع إلى محارم الكعبة... ففي الكوفة تلقى مصرعك!!!.

وبسرعة لا تلهث أجابَهُ الحسين:

ـ إن خمسين سنة مرت علينا بعد عمر بن خطاب قد صاغت قدري، فلا تلهث علي يا ابن العم!! رعاك الله من مشفقٍ حبيب!!!.

كان الفتى الصغير بعيداً خطوتين عن صدر جدةٍ الحسين... سمع الحوار القصير ففرك أذنيه، وأغمض عينيه... وبعد أن فتحهما لم يجد الرجل اللاهث إلا دامعاً، يعتلي جمله ويرحل... ودنا من جده ليقول:

من هو عمر بن الخطاب يا جدي؟

يظهر أنني لن أحبه!!!.

(٢)

في المحطة الثانية وتدعى «الصفَّاح» لحق بالقافلة عون ومحمد ابنا عبدالله بن جعفر، وقد استحصلا من الوالي على مكة ـ عمرو بن سعيد بن العاص ـ على صكّ أمان للحسين يعود به آمناً إلى مكة، قال عون:

ـ هذا هو صك الأمان يا عم.

رمق الحسين الصك بزاوية عينه، من دون أن يمد إليه يداً وقال:

ـ جدنا الرسول هو الذي قدم لنا وللأمة جمعاء صكوك الأمان! ولقد بُدِيء بتمزيقها منذ العهد الأول على يدي أبي بكر! أما هذا الذي في يدك يا عون، فليس صكَّ أمانٍ. . . بل هو صك ارتهانٍ وامتهان!!!.

أليس لنا أن نرفض صكّاً كاذباً توارثه عن أبي بكر بنو حربٍ ووالي مكة ابنُ العاص؟!!.

لاذ الرجلان بصمت حزين ـ دخل الحسين باب المخيم ـ لحق به الفتى الصغير، تلقط بعباءته وعينه تسأل ـ رمقه جده واحتضنه إلى صدره. . . بعد لحظات محسومات، دخل عون، ومحمد ـ مزقا على قدمي الحسين صكَّ الأمان وسجدا لله تعالى بين يديه وهما يشهدان:

ـ نحن معك ولك أَبَدَ الدهر، نمزج دمنا بدمك في تقديم الشهادة.

(٣)

وفي المحطة الثالثة وتدعى «محطة ماء العرب» كان الحسين منهمكاً مع رجاله بتعبئة القرب سداً لعطش الطريق، وإذ بالفتى الصغير يتقدم نحوهم مع رجلٍ جاء يسلم على الحسين. يبدو أن الحسين كان يعرفه منذ وقت طويل، ولما لمحه بادر إليه مرحباً:

ـ أرحب بعبدالله بن مطيع العدوي. لك من حسن الرأي وسداد

الحكمة ما يجعلني أصغي إليك.

وبادر ابن مطيع بالجواب:

ـ من أنا يا ابن بنت الرسول حتى تصغي إلي؟.

ـ ولكني أجرؤ وأقول: لا تكمل الطريق...

لن يكون لك من محبة القوم، درعٌ تقيك!!!.

لا الخوف، ولا الرعب، ولا الجهل يا سيدي ينشىءُ بطلاً يحميك!!!.

وبعد تأمل رهيب أجاب الحسين:

ـ إنها أمة جدي يا ابن مطيع...

جئت أعلمها كيف ترفض ذلاً يغذي فيها الخوف والرعب والجهل المميت!!!.

سأقرأ عليها فصلاً من فصول الكتاب، يعزز في نفسها مجد العنفوان، فلا ترضى أبداً أن تسلم سيفاً لمن ينحر فيها شمخة العنفوان!!!.

سمع الجواب ابن المطيع، وانحنى يقبل الطفل، وقد رآه مبهوراً بشفتي جده الحسين ثم انفتل راجعاً يوجه الكلام نحو السيد:.

ـ يا للعظمة، تتخطى حدود الوجل... لتعيش ـ بكراً ـ في عين الزمان!!!.

(٤)

وفي هذه المحطة المدعوة «بطن العقبة» تمت مقابلة قصيرة بين الحسين وكان رابضاً تحت بلاس الطب، يعدُّ البلاس كم فيه من خطوطٍ مشدودة في إنشائها ظلاً فوق رأسه، يقيه من وطأة الشمس، وبين

رجلٍ دَخَلَ الطنب، وهو يدعي أنه يعرف كم هو عدد الخيوط التي يشتدُّ بها بلاس الطنب، وطفق يقول:

ابن لوذان ـ عندي نصيحة لك يا سيدي الحسين، ألا تسمعها؟.

الحسين ـ سأخذها من فم عمرو بن لوذان بن عكرمة ـ هاتها.

ابن لوذان ـ لا يبدو أن في خاصرة الجوِّ غيمةً تمطر، فهلا تعدل عن المجازفة!!!

وسريعاً ما أجاب الحسين:

ـ إن المجازفة ـ يا ابن عكرمة ـ أن نعدُلَ عن المجازفة!!

إن ارادة الله هي الفاعلة.

وهي التي تعصر الرمال.

وتفجِّر منها دفق الفرات!!!.

عصر ابن عكرمة عينيه، وضغط أذنيه، وانسحب... بينما كان الفتى الصغير يرتمي في حضن جده وهو يقول:

ـ جدي... كيف يكون دفق الفرات؟.

(٥)

وفي المحطة المدعوة «العذيب» جاء الحسين وفدٌ من وجهاء الناس، على رأسهم الشاعر الكبير الطرِّماح بن عدي، ودار بينهم وبينه هذا الحوار:

ـ نحن أربعة آلاف، تقدر أن تضرب بهم ساعة تأمر.

رفع الحسين رأسه بشموخٍ وقال:

لا أطلب ارهاقكم بلا جدوى... لو أنكم تصويرٌ وافٍ لحجم الأمة،

لكانت اختفت منذ زمن بعيد هذه الذئاب من حول الحظيرة!!! اجمدوا الآن وابقوا خميرة من الخمائر . . . إن غداً كبيراً سيأتي بعد أن أثبت رفضي!!! .

وبعد لأيٍ وتأملٍ قال الطرماح :

ـ ألا تظن أن جبلي أجأ وسلمى. يا سيدي، يتمكنان من حمياتك في ساعة المحنة؟! .

وبشموخٍ آخر فيه كثير من كمد. قال الحسين :

ـ إنه قلبك الكبير أيها الشاعر . . .

ولكنَّ للأمة مطلباً آخر . . . .

تشتري به حقيقتها مني . . . ولا تشتري سلامتي الصغيرة . . .

افهمني يا طرماح . . .

وروِّ شعرك من أطيب المناهل .

انسحب القوم والحسين يشيعهم طويلاً وباعتزاز . . . ولما رجع إلى المخيَّم، وجد فتاة الصغير متربعاً فوق الحصير، وهو غارق في التفكير . . . فسأله جده .

ـ بماذا تفكر؟

أجاب الفتى جَدَّهُ، من دون أن يرفع رأسه إليه :

بجبلي الطرماح . . . أجأ وسلمى . . .

واحد باسم رجلٍ .

وآخر باسم امرأة .

وهفا عليه الحسين، وهو يقول في سره :

سيكون لك يا فتاي .

أن ترسم جغرافية القمم .

وهيكلية الإنسان .

ساحات كربلاء

وجاء دور كربلاء ـ إنها المحطة الأخيرة للاستراحة الكبيرة التي نامت فوق أوشحة المسرح. لقد تم فيها التخييم لعشرة أيام من بداية محرم، بعدها تقوَّضت الخيام وانشلَّت خشبات المسرح... وأما الستارات، فإنها تلك التي تضرَّجت بعقيقٍ وعندمٍ ومرجان!!! وبقيت منشورة على صفحات الجو تتفيَّأ بها ـ منذ ذلك الحينِ إلى كل حين ـ حروفٌ مفتوتة من ضلوع كلّ أليادةٍ تسقيها البطولات النادرة عبير الدم.

لقد انتثرت الخيام، كأنها المصنّفة الجيوب، خلف الخشبة العريضة المنصوبة في صدر المكان، هكذا تمثلها الخيال من الواقع الذي اندمجت به:

ـ مخيم وسيع كان يلتم فيه الركب المرافق للحسين ـ لم يكونوا فيلقاً لحرب، أو قواداً لجيش... بل إنهم أهلٌ وأربطةٌ وفاء؟ رافقوا السيد، حتى إذا ما ناله ضيمٌ شربوا معه نكد الضيم سواءً بسواء. لقد كانوا معدودين بمئة أو ما يزيد قليلاً، وكلُّهم أوفياء مخلصون، كمحمد ابن العم عبدالله بن جعفر مع أخيه عون، أو كمتفانٍ آخر، زوج دلهم المشهورة بحبها لآل البيت، واسمه زهير بن القين.

ـ ومخيَّمٌ ثان ـ أضيق قليلاً من الأول ـ كان يتلطى فيه الحريم، والأطفال، والمرضى: مثل علي بن الحسين وقد طرحه ـ مريضاً ـ اسهال

عنيف قرب زوجته فاطمة بنت الحسين لتعتني به... في هذا المخيم النسائي انحجب الفتى الصغير ـ محمد الباقر ـ ولم يسمح له أبدا بالظهور أمام جده، لأن كربلاء كلها معدودة ـ منذ أن خيَّم فيها الركب ـ ساحة حرب.

ـ ومخيم ثالث كان ينحشر فيه محضرو الطعام، وبين أيديهم ظروف وقرب الماء، ومواعين أخرى مليئة بالمؤن.

ـ ومخيَّمُ رابع يتسع للخيول والجمال والبراذين، مع سائسيها، أماالأعلاف فكانت حشو أكياس وأخياش في مخيم ملاصق.

تبقى الساحة الكبيرة، فهي الممتدة أمام المخيمات وما حواليها، لقد ـ تحولت كلها إلى ميدان حرب، تساقطت فيه ـ على أبواب المخيم الأول ـ نبال وسهام، كأنها حبالٌ من ضرام.

لقد كان التحدي مريراً قام به عمر بن سعد بن أبي وقاص قائد جيش مؤلفٍ من ثلاثين ألفاً لإسكات جيش آخر، قابع ـ كما رأينا ـ خلف قلاع الخيام! إنه حصار ذميم، قوامه التخويف والترهيب والتذليل، لدفع المحاصرين للركوع والاستسلام!!! ولكن الحسين، وقد اتخذ القرار الأعصى، فإنه نزل إلى ساحات البراز ودفقات الصراع، شامخ الرأس، مديد الباع.

لا يأخذ منه النبل مساحة جرح حتى يلثم الجرح بفمٍ وهو ينادي:

أين هي النبال كلها، وأين هي السهام.

لا توسع الجروح ـ في جسدي ـ ولا تغمرني بالدم!!!

إن الجروح مساحتي ـ يا أمتي ـ تعلو بك إليَّ.

وأنا فوق القمم، وتنجّيك من فرط الغباء.

ومن فرط السقم...

إن جدي النبي ـ يا أمتي ـ بانتظارك.
وبانتظاري، ليوم الزهو، تتلبَّسيَنهُ.
وترفلين ـ به ـ بين الأمم!!!

يا للفتى محمد الباقر ـ وقد نقب بلاس المخيم بسبابة يده اليمنى ـ يرى جده الحسين في اليوم العاشر من أيام البراز، يسقط أرضاً، وهو كله ـ من قمة رأسه حتى أصابع قدميه ـ مساحة حمراء من دم... قذف البلاس وارتمى في ساحة الدم... وتقاذفت بنفسها أمه فاطمة، وراءهُ معولة... واعولت أخت الحسين، زينب... وكل النساء اعولن وهن يزحفن على الرمل... وقام أبوه عليٌّ من فراش المرض، ولحق به وهو يجر قدميه فوق لطخ الدم!!!.

ولكنَّ الجيش المتدفق إلى ساحة الميدان، لملم الأطفال، والمريض، والنادبات، وجعلهم حزماً حزماً... وتوجه بهم إلى قصر الوالي عبيدالله بن زياد!!!.

أما رأس الحسين فهو المقطوع عن الكتفين وعن الوريدين الملونين الآن بزرقة الموت، وقد أصبح مشكوكاً برأس الرمح، يرقصون به فوق الرمل الأحمر الملطخ بهمجية الراقصين.

سبّابة الباقر

لقد ظنوا أنهم لا يتمكنون من تقويض المخيم في كربلاء إلا بعد انشاء المذبحة!!! ولقد أنشأوا ـ فعلاً. جحيم المذبحة، ولم يتركوا رجلاً واحداً من النازلين في المخيم على رمقٍ من حياة!!! لقد عدُّوهم واحداً واحداً، فبلغ عددهم مئة وتسعةً وثلاثين جثةً مضرَّجة بالدم! بعدئذٍ هجموا على البلس فمزقوها، وقطَّعوا الحبال، وقوّضوا الأوتاد، وموَّهوا الأطناب!!!..

يا للمسرحية البلهاء ـ يقوم بتمثيلها ـ فوق خشبةٍ منصوبةٍ في فسيح العراء ـ حاكمٌ اسمه خليفة محمد، في يده شريعة منسولة من مناجم الحق ومن منزَّهات القضاء، وبين يديه فيالق جيش، ومعدات حربٍ، ورقّاصات منجنيقٍ، وسيوفٌ، ورماحٌ، ونبالٌ، وسهام، وجمالٌ مصبَّرة على العطش، وخيول مطهَّمةٌ للنزال، وحتى رفوفٌ من حمام مطوَّقٍ زاجل، وقرودٌ مدربةٌ على الرقص العاري، وببغاواتٌ مفصَّحة النطق، وأفواجٌ من الصقور الصاقرة، ومن البزاة المجهزة للانقضاض.

أجل... ما باله هذا الخليفة الحامل كتاب الحق، ورسالة التجميع حول الحوض المطهَّر، لا يصون الأمة ويحميها من الحيف وهدر الدم!!! فليكن له من الزعم ما يبرر أوامره بتقويض مخيمٍ كلُّ مناعته بلسٌ مشدودةٌ على أوتاد.!!!.. ولكن عدل السماء وعدل القيمة الحاصلة في حضارة

الإنسان، لا تجيز لحاكمٍ ـ مهما تدنَّت فيه مراتب الوعي ومراتب الوجدان ـ إن يستبدَّ ببلس المخيم، ويخنق كلَّ من ينزل فيه من إنسانٍ ومن حيوان!.

لم يكن على قائد الجيش البالغ ثلاثين ألفاً، وهو يطوِّق مخيماً في كربلاء، لا ينزل فيه أكثر من مئة وثمانين من النساء، والأطفال، والمرضى المهازيل، والرجال العزل، أن يتصرف كما تصرف، وأن يفعل ما فعل!!! لو أنه لم يكن الأحمق والأجرم، لجاء ولفَّ القوم ببلس خيامهم، وساقهم على رواحلِ خيولهم وجمالهم، إلى سجنٍ ممدود في أقبية بعض القصور التي شادها الحاكم الذي يرعى الرعية بالعدل والروية...

سيحاكم القضاء القوم، وسيعلمهم كيف يكونون المؤمنين الصالحين، لا المجرمين العاصين الهاربين من وجه العدالة، والنازلين في قلعةٍ خلف مخيم...

أما بلس المخيم في كربلاء، فلم يثقبها: لا نبلٌ أعور، ولا سهم من عماء، ولم توقّص عنقاً واحداً من أعناق أوتادها، لا يدٌ من جريمةٍ ولا جريمة من فيض غباء، إنها لا تزال حية صامدة في عين الزمان...

ثقب واحد ـ فقط ـ أحدثته سبابة الباقر في بلاسٍ من بلس المخيم المطل على الساحة الهارب منها رجاء وعزاء وضياء... سيدخل من هذا الثقب ـ بالذات ـ شعاع آخر، تستنير به الأمة في يثرب، بعد ثلاثة عقودٍ جديدة يستلم فيها محمد بن زين العابدين زمام إمامة مقهورة، لا تجد أمامها من سبيل، غير تفجير العلم لمحو الجهل، وتبديد الحيف، والظلم، والاساءات!.

سيكون توسيع جامعة آل البيت، بعلم الفيزياء، والكيمياء، والجغرافيا، وما شابهها من علوم الفلسفة، والفقه، والطب، والحساب، ما يحرك الفهم، والمدارك، والقابليات المتحفزة في الذهن والبال... ستكون سبابة الباقر ـ وإن عمرها الآن أربع سنوات ـ شعاعاً ناعماً وضئيلاً

في لحظاتِ الضحى، ولكنه سيكون مؤجَّجاً وسخياً عندما يبلغ ساعات الظهيرة.

سيكون الباقر ـ بعد الآن ـ وقد عانق جَدُّهُ الكبير مساحات خلوده في أمة جده النبي: إماماً في ظل إمام. إن في الفصل الجديد الآتي وَصْلَةَ البحث وتتمة الكلام.






الدورة الثانية

إمام في ظل إمام

امتداد الخط

من الكوفة ـ إلى البصرة ـ إلى يثرب

وفي يثرب

العلمُ الكبير والعلم الصغير

سجادات الإمام

جامعة في يثرب






امتداد الخط

إن الخط الممتد هو خط الرسالة عبر الخط العريض المتفرع منه وهو خط الإمامة. لقد رأينا في القسم السابق من هذا الكتاب، وعنوانه «خطوط عريضة» أن النبي العظيم هو ركيزة الرسالة المستوحاة من واقع الأمة التاريخي في أمس حاجاتها إلى مقومات روحية - فكرية - إنسانية - اجتماعية، تضبط شؤونها الحياتية - المصيرية، وتنطلق بها إلى التأسيس، والتركيز، والفلاح. وهكذا اتضح لنا من البحوث الواردة في هذا القسم أن الرسالة هي الحاح مطلبي - رسالي، تتكيّف به أمة عريقة في الوجود الإنساني المتشبث برمالها العربية، وبانفتاحاتها الجغرافية على جميع المقالب الأربعة من حواليها والمليئة بالجاذبيات السخية، وبجميع أنواع المغريات. ستوظّف الرسالة هذه الأرض المطروحة في أحضان الشمس الوسيعة، وستمغنطها بحرارتها المخزونة في أحشائها منذ انفراج النور، وستنبه في خاطرها بأنها حضن أمومي وسعته - بالأفواج البشرية - آلاف الحقب.

وحده النبي أدرك أن على الجزيرة العربية - مثلما قدمت للجوار أفواجاً بشرية تمازج بها هذا الجوار واحتواها - أن تتابع اليوم مسيراتها التدفقية، وتقدم مدداً رسالياً كامل الحضور تستفيد منه الأمة الخالدة في توارثها وامتدادها الخالدين، ووحده أدرك أهمية هذه الرسالة، ورجاحة دورها في التحضير الإنساني الناشط الذي يلملم هذه الأمة من متاهاتها

المزمنة، ويسترجعها إلى الحقيقة الواعية والمؤمنة بقيمة المجتمع الفاعل عندما يكون مرصوصاً بالعلم والفهم، والإيمان بخالق يزين الروح بالتقوى، ويعالجها بالخلق الصادق والنهج المستقيم.

كان القسم السابق ـ برمته ـ تلميحاً موجهاً لتبيان قيمة الرسالة في معالجتها شؤون الأمة معالجة مبثوثة في جميع الخطوط العريضة المتفرعة منها: فالأمة، والأمومة، والإمامة التي رفض ـ بعض منهم ـ حجم حروفها فاستبدلها «بالخلافة» هي كلها متشابهة ومنطلقة من الخط الرسالي ـ وهي بحوث من أجل حماية الخط ورعايته، والانطلاق به إلى نصاعة الديمومة ووجاهة التحقيق.

لم يكن هم النبي محصوراً في التفتيش عن نقطة دم تجري في عروق من يخلفه حتى تصح الخلافة، وتصفو السلالة التي ستتربع فوق أريكة العرش ـ بل كان الهم ملتهباً بعزم الرسالي المتشوق إلى رائد تتجانس حروف اسمه مع حروف آيات الرسالة، ويحمل من معانيها مقالع روحه، ومدارج فكره، ويسمو بها وهي تسمو فيه: مراناً، ومراساً، وانحفاراً غائراً في عمق النفس، وطويات السليقة.

لقد وجده النبي ـ هذا الرائد ـ نائماً تحت السقوف العالية من بيته المصمود في القبّـة الزاهرة، إنه هو العلي البطل المسند رأسه فوق الوسادة ذاتها الممدودة فوق الفراش المنسل منه الرسول الهارب من فتك الأقربين الحاملين رغوة الدم، لأنه يحمل إليهم رسالة يأبون أن يتناولوها من يده ـ ولو منوّرة. . .

علي هو المفتش عنه بحرارة الشوق الذائب في حروف الرسالة، لا لأن يكون خليفة ـ بحروف الكلمة الصغيرة الملطخة بأمجاد العروش ـ بل لأن يكون إماماً منبثقاً من مجادل الرياديين، حتى تشرئب من فوق منكبيه رسالة بهية تبهو بها أمة العرب، وفيها تقتدي أمم الأرض. هكذا فلنكن

مقتنعين ـ أبداً ـ بأن النبي ما كان مفتشاً عن خليفة يمتد به اسمه، بل عن إمام تحيا فيه أجواء الرسالة، وتستضيءُ بها أرجاء الأرض.

وهكذا أيضاً فلنظن مع النبي: بأن الرسالة لن تعيش إلا في أشواق الإمامة، وأن الإمامة لن تكون حرزاً إلا إذا انبثقت من ضلع الرسالة، كما ينبثق الجنين من رحم أمه المروية بألام الحنين.

من هنا أَنَّ الإمامة مرتبة تنظيمية، تعب النبي على تنظيمها وتزنير الرسالة بها جداراً صامداً في حقول الاحتراز، ولقد متّن هذا الجدار بمداميك المران، ووثقه ـ صلباً ـ بمراس منّور بعلم، وفهم، وادراك.

لقد طال مران علي بين يدي الرسول حتى بدا كأنه انشطار منه، وهو يصغي إلى انزلاق آيات الرسالة من شفتيه، أو إلى صدى انهمارها من موقي عينيه، أو إلى حفيف الاشارات المتهافتة عن راحتي كفيه.

لا شك أن المراس يزيد الكسب، ويلّون الكاسب بالغنى الفريد، وكذلك المراس يتصلَّب بالمران ويغدو في مساهمة فاعلة، لا تخطىء ولا تريب.

وطال أيضاً مران الحسن والحسين بين يدي جديهما الرسول في فترات الطفولة، وبين يدي أبيهما الإمام في ادراج الفتوة والرجولة، فكان لكل واحد منهما ـ من وحي ما حفرت فيهما مركزات الرسالة ـ تصرف فذ ومبتكر، جعل الحسن ـ في وطأة الأحداث ـ يحقن دم الأمة ويرتق صدعاً فيها كاد يردها إلى جاهلية قبائلية تنسيها أن نبياً منها أنجب رسالة تلملم الأرض كلها وتلفلفها بالجنان... وجعل الحسين ـ في مدى عشرة أيام ـ ينشىء الياذة البطولة والعنفوان، باذلاً دمه الأحمر في رفض الذل، ورفض الامتهان، مبدياً للأمة: أنّ عزة النفس ـ وحدها ـ تحيي الإنسان.

أما الآن وسيرة إمامنا الباقر لا تزال معنا في مراحلها الأولى ـ فإننا نراه قد شد زناره على خصره الصغير، وراح إلى حضن أبيه المتسلم جديداً

إمامته المتذوقة مرارة الألم وفداحة الأحزان.

سيكون له من الآن وصاعداً ـ على مدى ثلاثين سنة ـ أن يشاهد أباه زين العابدين، كيف ينام، وكيف يقوم، وبين يديه كتاب يغوص فيه ويستخرج منه ياقوتاً ومرجاناً. . .

سيقرأ معه الآيات، وسيستمع إليه يرتلها بالسجود والابتهال، وسيصغي إليه يفسرها بمعانيها ومقاصدها البينات. . . ففيها العلم حتى يذوب الجهل من كل عين غبية. . . وفيها الفقه حتى تتبصر النفس بحقيقة قضاياها. . . وفيها الكشف عن شموس نيرّات، حتى تمتلي الحياة من عين باريها. . . وفيها الحق، والعدل، والخير، والحب، والسماح، حتى تتقطع حبال التعدي والاجرام، وحتى يموت ـ جوعاً ـ كل رجس، وكل ذئب، يتلطى خلف السياج، وحتى تعم بطاحات الأرض خيرات السماء، وحتى تشملها طمأنينة عاقلة تمحو الخنزير من ذهنية الإنسان. . . وفيها ـ بنوع شامل مطلق ـ أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، حتى تنمو الأمة بالنرجس والخزامى وتصفو مخابزها من خدر الزؤان.

ليس قليلاً ما سيجنيه الفتى، وقد خلا من تحت عينيه جده الحسين، ليعيش في كل ذهنه النامي: بالتأمل، والتفقه، والتمرس، والمران.

ستكون البحوث كلها ـ وإن وردت مجزأة الإلمام في القسم السابق تحت عنوان «خطوط عريضة» ـ من ضمن ما سيختزنه في حقول الاطلاع، يغذي به تدرجه الواصل به إلى مسؤوليته الإمامية، عندما تحين ساعات الوصول. . . إنه الآن ـ في قمصان أبيه ـ إمام في ظل إمام.

من الكوفة إلى الشام إلى يثرب

لقد رأينا كيف اهتزت خشبة المسرح في كربلاء عندما ثقب الفتى الصغير محمد الباقر، باصبعه الطرية، بلاس المخيم، ومد عينه من الثقب، وشاهد الرقص... ولم يكن يدري ما هو الرقص، ولا كيف يلهو به الراقصون... ولكنه، بعد أن جنت به الدنيا بأحلامها الشوهاء، قذف البلاس وارتمى في الساحة المخبولة، يسأل الجريمة ذاتها:

ـ ما هذا الذي تفعلين؟

وقهقهت بوجهه تلك المأفونة الشمطاء، وصفعته بالجواب:

ـ عبيدالله بن زياد ـ حاكم الكوفة، وحاكم الساحة في كربلاء، سيشرح لك ـ أيها الفتى الغر ـ ما معنى الرقص، وما معنى الجهاد...

وانتفل الراقصون صوب الخيام يعرون أوتادها من قمصانها السوداء، ويسوقون النساء والأطفال سبايا محزومين بالأمراس، أما الفتى، فهو الواقف الآن محزوماً بخصر أمه فاطمة في القاعة الفسيحة من قصر الحاكم عبيدالله بن زياد.

منذ هذه اللحظة ـ وعبيد الله يتناول السبايا فرداً فرداً بعينه المزمومة، وأنفه المسطوم ـ بدأت عين الفتى تستدير عدستها وتتغور، وراحت أذنه تتكوف وتتنصت وتتقعّر... ليس للصدمات ـ في النفوس الذكية ـ إلا أن تحفر صداها في جدار الصدر وتتسوَّر...

لم يطل المقام تحت عين الحاكم، وبعد تهديد بسحب عنق علي بن الحسين، ورش دمه على أكتاف الحريم والأطفال، مما أهلع السبايا، لاسيما الفتى المصغي محمد، عاد الحاكم وأرجأ تنفيذ الجريمة إلى الخليفة يزيد، بعد أن أمر شمّر بن ذي الجوشن بحزم السبايا وسوقهم إلى الشام حتى ينظر الأمير بشأنهم ويتدبر.

رتب قائد الحملة شمر الجوشني قافلة لا شك أنها كان مميَّزةً بحقارة توحي بأنها تليق ببقية تقيأتها مسرحية كربلاء.

عدة أحصن مجللة ببرادع مخططة كالأبراد، كانت تعتليها حاشية القيادة، وبعض جمال محملة بالمؤن وقرب الماء كانت تنقل زاد الطريق الطويل الممتد من الكوفة عبر واقصة حتى صحراء تدمر، واتجاهاً مكدوداً لا يرتاح إلا في واحات الشام، أمَّا الحمير، والبراذين المسودة تحت وطأة الشمس، والمحررة من البرادع والأجلال، فكانت تحمل السبابا من النساء والأطفال، وليس بينهم إلا رجل واحد، في مستهل الثالثة والعشرين من عمره اسمه ـ فقط ـ مع ابن ذي الجوشن: علي ابن الحسين.

لقد سأله يزيد، وهو ينقل السبايا ويصفهم في قاعة القصر في الشام، ملصوقين بالجدران:

ـ من يكون ـ من الزمرة ـ هذا الناجي وحده من تحت السيوف؟

فأجاب ابن ذي الجوشن ببراءة الذئب يمسح بيده شفيته من لطخ الدم:

ـ اسمه علي بن الحسين... لم يتلقَّط بعنقه: لا نبل ولا سهم،

ولم تغتسل بوريده نصلة السيف... لأنَّ هزالاً عنيفاً من اسهال مستبد:

عزله إلى ما بين الحريم، فسلمت أمعاؤه من البقر الأحمر....

وقاطعه الأمير، وفي نبرة صوته رجفة من ضمير:

ـ لا تكمل يا شمر... ودعني قليلاً أتبصر...

فكوا أغلال القوم.

خذوا الأسيرات ألى غرف القصر وألبسوهنّ ثياب الأميرات.

أما أنت أيها الإمام، فلك ما تريد....

إلا أن تطلب ارجاع رأس أبيك إليك...

سيقودك النعمان بن بشير ـ ساعة يحلو لك ـ إلى يثرب.. فعد إليها...

ولكن... لا تتجاوز هناك الحدود... أرجو أن تودعني بكلمة.

وأجاب الإمام بصوته الخافت:

ـ كلمتي الوحيدة أيها الأمير:

لا تؤذ الرعية...

لعلَّ جدي النبي... يغفر.

قَادَ النعمان بن بشير قافلة آل البيت إلى يثرب. ـ أما الفتى محمد، فإنه التصق بأبيه المأخوذ بحزن النفس، التصاق القشرة بقضيب البيلسان... لم يبك... لم يتأوه... لم تنقر شفتيه ـ بين الحين و الحين ـ إلا كلمتان: «جدي الحسين»...

أنا لا أحسبه إلا استوعب الفجيعة كلها، بكل أبعادها، وكل مآسيها.... لقد وهبه الله سبابة في كفه نابتة من رهافة: لا هي من اللمس.... ولا هي من دوحة الحس... ولا هي من دفقة الأحلام... إنما هي من سبيكة روحية ذابت على قضبان المشاعر... وهي من اختباء النهى في الخلايا النائمة في عب الضمائر.

وفي يثرب

(١)

إنها مدينة الأنصار، وهي المدينة المنورة، لقد تنورت بلجوء النبي الكريم إليها هارباً من ملاحقة الكفار.

لقد كفكفته المدينة وهي تستظل عينيه الواسعتين، ففاضت عليها منهما دفقة الأنوار... تلك هي حكايتها التي لا ينتهي من حفرها في أذن التاريخ أَهْلُ آمنة ـ أم النبي الحبيب ـ وهي المسلوخة من بني النجار.

لقد اعتادت هذه المدينة المطوية على حناياها الشهية أن تنعش ذاتها بالشهوة ذاتها، وأَن تشرب ضوءها بعدسة عينها، وأن تأخذ الحق، وتشتبك به فلا تتركه حتى ولو حولوه صليباً وعليه صلبوها.

لم تخذل هذه المدينة النبي وعانقته عندما ساقه الله إليها. إنها هي التي ساندته وآزرته، وضربت معاولها في الأرض وحفرت له أساسات المسجد، وطيبت حنجرة بلاّل فرنم آيات الرسالة من فوق أوَّلِ مئذنة هتفت بآذان الجزيرة: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، الله أكبر... وعندما تعبت عين الرسول من بث النور في ساحات الجهاد، أغمضها في الغفوة المستنيرة، فتناولته هذه اليثرب المعتقة كخمور الأندرينا، وأنامته في أدراج الضريح، ولا يزال النور مسكوباً على أدراج الضريح.

وفتحت يثرب دفتي صدرها للحسنين الوافدين من الكوفة حتى يتدبرا أمراً شاءه الله أن يكون مقضياً... وعندما ارتشف الحسن نقطة السم، لفلفته يثرب بقميص الذكر، وأدرجته قرب أمه فاطمة الزهراء في حنوات البقيع... لقد ماتت فاطمة من فرط الحنين، ولا يزال المثوى الحنون حتى الآن مبلولاً بدفقات الحنين...

وها هي يثرب ـ في اللحظة المرة ـ لا تدري كيف تذرف الدمع، ولا كيف تنسى الالتياع، وعلي بن الحسين، يقف على أبواب زواريبها المترنحة، يتفل أمامها قلبه المسفوح على أبيه الحسين..

لقد أدركت يثرب ـ وهي تصغي إلى حزن الراجعين من خريطة كربلاء ـ أنَّ صورة الحزن أصبحت حية تتحرك في الخواطر، وأنَّ الحسين انفتل انبثاقاً آخر، وأصبح رقعة من مساحة يتسع بها الزمان الملتف بجوهر الحدث... وأية قيمة للزمان إن لم ينغرس في المكان وتخرج منه ألوان السماء؟.

يا للحسين ـ تقول الآن يثرب، وقد احتضنت النبي وامتصَّتْهُ رسالة حية في ألغازها ورموزها الناطقات؟ ـ يا له، يفسّر أباه علياً وجده النبي، ويبذل دمهُ حتى تتلوّن بالحياة تقاسيم الصور... ستكون الرسالة حية به، يوم تحتويه الأمة معنى من المعاني الكبيرة التي ترفض الحقارات الذليلة، وتعشق الحق يفسره العلم الصحيح الواسع، وتنظم حواشيه حلقات الحجى.

(٢)

وانطوت العائلة في يثرب بأفراد بافرادها الباقين والناجين من تحت رزء الفجيعة. لقد عفا عنهم يزيد، عشيق الشام، وردَّهم مخفورين بالنعمان بن بشير، ذلك الذي ربط معاوية بقميص عثمان ـ ردهم إلى يثرب، مدينة

النور، ومدينة آمنة أم النبي، ومدينة الأنصار. . . . ردهم إلى البيت القديم في يثرب، فانطووا فيه بيتاً ينام تحت ظلين: ظل كأنه القوس الممتدة من سقف المسجد الملاصق إلى ما خلف بهاء المجرات، وظل ناعم وارف، تغمر الساحة به ـ أمام بوابة البيت ـ شجرة آراك غرسها النبي الحبيب ـ في ساعات اللهيب ـ حتى تتفيأها ابنته فاطمة مع رفيقها بالصدق والطهر علي، ومع ابنيهما النجيبين الحسنين.

في هذا البيت ـ بأقاليمه الخمسة ـ تفتقت حروف اللغز المبارك، وحصلت عملية اذهاب الرجس، ومسح البيت بالطهر المطهر.

هنالك بستان ممتدد خلف البيت بخمسمائة شجرة من باسقات النخيل، راح يعتاش بها أهل البيت بقيادة الإمام الجديد المتسلم مهماته الجليلة. إلى هذه النخيلات كان يتجه الإمام زين العابدين ليسجد كل يوم بصلواته المناجية رب العالمين، وإلى جنبه فتاه محمد المتيقظ على كل بادرة كانت تحصل أمامه بكل جديد نابت تحت عينيه.

لقد بدأ التدرج ينبت سنابله في الظل الطري: سؤال من هنا ولمح من هناك، وكانت تتوضح فيهما آفاق تنبسط بها الأبهاء.

(٣)

والحزن. . . إنه العميم في يثرب ـ تجمعت به وجاءت كلها إلى محارم البيت تشاركه بدمعها الأحمر، وتغرق معه في مهابات التأمل. . . لم تخف يثرب من الدمع يقرّح عينها وأجفانها، ولكنها استعذبته يجلو النفس فيها ويجللها بنقاوة الإيمان. صحيح إنها خسرت إماماً حسينياً بهياً، ولكنها ستجده في حقيقة الذكر، وحقيقة النهج، حيا في مهجتها، يعلمها كيف تنتصر على الذلّ والضيم برفضها الحاكم يرهقها ـ بهما ـ وهو المتولي شؤون الرعية. . .

إنه الآن يعلمها حقيقة العلم: أنَّ العدالة والاستقامة موهبتان مستنيرتان بالحق يجلوه العلم، والفهم، ونقاوة الوجدان، وأَنَّ البيت الذي ينجب مثل الحسين هو المتسلسل في حقل المواهب النبيلة المتشددة بالحق المتمرس بحقيقة الرهان. . . إنه بيت الرسالة ينطق بها نبي طاهر العين، وطاهر اللب، وطاهر الخميرة، وها هيْ مقاصده الطاهرات الزاهيات، يجاهر بها عليّ مفسرة به كأنه كل الحق المجدول في مسلسل الآيات. . . . ليس الحسن إلا إماماً مسطراً بنهي البصيرة، وليس الحسين غير صوت آخر، يصغي ضمير الكون إلى عمق صداه، وها هو البيت يستمر مشدوداً بهذا العليِّ الثاني الذي شاهد عاشوراء أبيه تزفر زفر الجحيم ـ ليس على أبيه ـ إنما على حاكم غبيٍّ جرده الجهل من العلم، ومن الحق، ومن اعطاف التبصر، فارتكب الجريمة الشنعاء!!.

كل يثرب جاءت تشارك أهل البيت، واستهامت بالمشاركة: تارة دمعاً لا تقدر أن تحتجزه المقلة، وطوراً انسكاباً في تأمل وصمت يشهدان لها بالتأهب الضمني لحسن التبصر في القضايا الكبيرة التي تخفف من قيمتها في المجتمع كل المتاهات المبتعدة عن احتياز العلم، وعن الاعتصام بالحق والصواب.

جابر بن عبدالله الأنصاري تبصر به النبي طويلاً، وتمنى عليه أن يعيش في يثرب كما تعيش الخمائر في أشواق الطحين، وتمنى له أيضاً أن لا يرمي من يده عصا الشيخوخة إلا بعد أن تقع عينه على فتى من صلبه شبيه به ـ هو الرسول ـ خلقاً وخلقاً، وأسرع هذا الصحابي معكزاً على عصاه العتية، يشارك الآتين من كربلاء مصبوغين بحزن الفجيعة. . . شاقه أن يرى الحزن لا يستقر في النفس إلا ويبنيها بناءً جديداً، فيه من التصبر والتبصر ما يضاعف الإيمان بالرشد، ويشدد البطولة في تحمل البلية. . . شَاقَهُ أن يشاهد المعتدى عليه لا ييأس من معونة ربه، ولا يحقد إلا على الجهل العفن القائم في سريرة المعتدي.

وقف هذا الصحابي الذي استطابته عين النبي، خلف الإمام علي بن الحسين الذي لا يزال فتياً في إمامته الملقوطة بفداحة الحزن، ولم يبادره إلا بعد انسلاخه من سجوده الطويل، والدمع الأحمر يحفر قناة في وجنتيه الذابلتين ـ قال له ما معناه:

ـ سيدي الإمام، لماذا تحمِّل نفسك مما يضني جسمك الهزيل؟

الأمة بحاجة إليك يا سيدي.

ترعاها بجهدك المتعافى.

لا بحزنك المتمادي...

سمع الفتى النجيب محمد، مقالة الشيخ الوقور ـ وهو من الخلف مطرقاً يصغي، فاتجه إليه يأخذ يده وهو يقول:

ـ بالأمس يا عم رجوت أبي مثلما رجوته أنت الآن:

أن يخفف عن نفسه عناء يهزله ويضني جسمه.

فجدي الحسين قد غاب ـ وترك عليك يا أبي صدق المناب...

أبي يا عم لم يصغِ إلي ـ عساه يصغي إليك.

تناول الشيخ الفتى بين ذراعيه، وتفرس به ملياً ثم قال:

ـ أنت حكايتي الطويلة يا ابني، أخبرت جدك الحسين بها.

فسماك باسم محمد.

أنت شبيه بجدك النبي يا محمد ـ لقد كلفني أن أقرئك السلام.

بعد أن أقولك لك: إنه لقَّبك بالباقر.

ـ الأمة بحاجة يا ابني لمن يبقر لها العلم.

فتستنير به في مشوارها الطويل، وتنجو من جهل يعتم عليها المسير.

وأجاب الفتى بكل اتزان:

ـ سأستعين بأبي الإمام وألبيّ جدي العظيم.

ـ سأستعين بك في تركيز مقاصد جدّي الرسول...

منذ هذه الساعة المليئة بالفهم والعزم، كتم الإمام علي بن الحسين حزنه في عبه، واتجه نحو المسجد يوسع فيه مقاعد الدرس ـ يا لجامعة أهل البيت يركزها اليوم إمام تلوَّن اسمه وأضحى: زين العابدين.

زين العابدين

(٤)

منذ ما يقارب الخمس أو الست سنوات والإمام الصغير محمد يتنقل فوق الأرض في يثرب، لا زاروب من زواريبها العتيقة إلا وأصبح يشعر: أن خطوات العابر فيها ـ ناعمة ــ كأنها لمس فراشة، وخفيفة، كأنها من الحلم مسروقة، هي للإمام الصغير الذي يمشي كأنه الغافي، وبين تجاعيد شعره مهابة تطل على جبينه كأنها دهشة رشيقة الظل، وهي به مستورة.

هكذا بدا لي أن أصف خطوات هذا الإمام وهو في صغره، مع العلم أنه سيمشي بها ذاتها في كبره، على فارق شكلي لا جوهري، سيعينه: نمو القدم، وتضخم الساق، وبدانة الجسم، أو تطور صحي آخر، يلون القيافة ويدق فيها جديداً من ميسمه.

دائماً هي الخطوات السليمة والصحيحة والبريئة، تحمل شكلها، وصدقها، ولونها مع الصغار، صافية وخالية من التصنع والدجل. . . مع نوع من التأكيد ان نوعية الخطوة التي تألفها وتحفظها قدم الإنسان، هي تعبير دقيق عن نسبة الصحة في بدنه، مقرونة بالعوامل النفسية ـ السليقية ـ العقلية النائمة كلها في شخصيته المهيأة للبروز.

إن خطوات الإنسان ـ وهو يمشي ـ هي المكيفة بما هو مخبأ في ذاتية صاحبها من مزايا وصفات، لو صح تعهدها واستدرارها، لنطقت بالحقيقة

الكامنة في تلك الخلية.

إن يكن البحث هذا بحاجة إلى تعليل فلسفي ـ نفسي، أو فيزيائي أو كيميائي له ضلع من ضلوع المعادلات... فما أحرانا ننتظر أمامنا الصغير حتى تشتدّ خطواته، وتمتن ضلوعه وفقراته... وساعتئذٍ فهو المدعو إلى تجهيز الجامعة العلمية في مسجد يثرب بمواد الفلسفة، والفيزياء، والكيمياء، وعلوم الأشياء، والهيئة، والحساب، والهندسة... سيقدم لنا مثل هذا التعليل الموجه ـ هو بذاته ـ من فوق منبر جامعة المسجد، إذا تصبرنا إلى ذلك الوقت وانتظرنا...

(٥)

وخطوات الإمام الصغير، أكثر ما كانت تشد به ـ باكراً من كل صباح ـ نحو الدار التي يسكنها صديقه الشيخ الجليل جابر بن عبدالله. لست أدري إذا كانت الصداقة بين الناس تغطي بعضاً منهم بمثل هذا النوع من الشغف المصقول، والذي يأخذ كلا من الشيخ الأنصاري، وهذا الفتى النجيب المطوي في ذاته كما ينطوي النور في زجاجة المصباح.

لقد كان هذا الشغف، عند الشيخ المسنّ: يأبى عليه ـ لحظة يدخل عليه الإمام الصغير ـ إلا أن يأخذ يده، يقبلها وهو ساجد، وفي عينيه دمعتان لا تنحدران وهو يقول:

ـ كيف لي أن لا أتصرف هكذا بين يدي من هو شبيه بسيدي الرسول؟.

أما الإمام الصغير ـ بعد عجزه عن اقناع الشيخ بالاقلاع عن مثل هذه الوتيرة ـ فإنه راح بدوره يجلس ازاءه، طابعاً على متن كفه قبلة يعمقها الوقار، ورأساً كان يبدأ بالحوار.

لقد كان الحوار ثميناً هذا الصباح، بدأ بطلب مقتضب، ولكنه مغلف

ببعد روحي وفكري ونفسي مشتاق إلى استكشافٍ عن الحقائق الكبيرة الدائرة فيها نوازع النفس، وارادة الله المصبوبة في كنه الحياة وأزلية الوجود.

أما الشيخ الوقور المتقبل الطلب بكل ما فيه من أبعاد، فإنه كان ينطوي إلى نفسه ويتناجى بالصمت المقدس الجائل في خلده:

ـ يا للشبيه الذي يتجاوز عمرهُ الصغير المحدودَ الآن بعشر سنين.

إلى عمر آخر كأنه أوسع من عشرة دهور..

أتراه يقرع أبواب المطلق، إذ يطلب مني كشفاً عن حواشي المطلق؟.

لقد كان الطلب محصوراً بتوجيهه إلى رجل ربط عمره كله بعمر النبي في رفقة لم تنقطع...

إنه كشف شامل عن كل ما يعرفه هذا الصحابي الممتاز عن حياة الرسول، أَلَمْ يخصه الرسول ـ دون سواه ـ بنقل الوصية إلى حفيدٍ له متحدر من صلبه، وشبيه به، طالباً إليه أن يكون واحداً في خط الإمامة موكولاً إليه أن يلبي الأمة بأشد ما تحتاجه الأمة: وهو تفجير العلم الذي به تستنير... لقد عين الإمام الصغير حيثيات الطلب، وقيد الشيخ بالجواب عليه، لأنه كَانَ المخصَّصَ بحمل الوصية.

لقد شعر الصحابي الكريم بثقل الطلب، وأدرك ملياً أنَّ الإمام الصغير الذي هو الآن في تمام حضوره، هو الممثل الممتاز لجده الرسول، وأنه فرض ارادته بنوع من طلب ولا بد من أن تُلَبَّى الارادةُ بنوعٍ من أنواع الخضوع.

ولقد أدرك الإمام الصغير ـ بدوره ـ أنَّ السيد الجليل الغارق أمامه بصمت الخاشع المتأمل، يحضر كل قواه الفكرية والروحية والذهنية لتقديم الجواب الوسيع والطويل والمجهد، لهذا رأى أن يخفف عنه حجم العناء فقال:

ـ أنا أعرف يا عمي الكبير أن طلبي لا يكتمل الجواب عليه. . .

لا بوقت طويل ولا بوقت قصير. لقد لمح لي أبي الإمام عندما التمست منه ـ أمس ـ إن يعرفني إلى حقيقة جدي الرسول.

فكان جوابه: (إنما جدك الرسول هو ضلع من ضلوع الشمول. . .

رويدك. . . خذه على مهل ـ بما يمليه عليك اللمح المتبصّر ـ

كلما احتكت عينك بحرفٍ من حروف الآيات المدرجة في كتابه الكريم. . .

لقد أكبرت الجواب واحترمته يا سيدي، لهذا فإني سأكتفي منك.

بأن تقدم لي بعضاً من لمحك حتى أشترشد وأنهض إلى القيام

بما هو موكول إلي. . . لقد بلغتني ـ أنت يا سيدي ـ

ما هو موكول إلي. . . ألم يطيبك جدي بعلم وبيان توسع

بهما الطريق أمام قدمي المستعدتين للعبور؟

سآتيك مع كل صباح ينجلي به الغد، حتى نفي ـ أنت وأنا ـ نذراً وعدنا به جدي الرسول.

قال الإمام الصغير مقالته هذه وانسحب خفيفاً كالطيف، أما الشيخ المجلل بالوقار فإنه تماسك بركبتيه الساجدتين، ورأسه مغمور بهالة كأنها من فيض المناجاة.

(٦)

لم يعد الإمام الصغير يعرف كم صباحاً مر عليه مع صديقه الساجد مثله في حضرة جده الغائب المالىء جو المكان. كان الشيخُ ـ وحده ـ المسترسلَ بقولٍ كأنه الهدل، وكان الفتى ـ وحده ـ المصغي إلى هطل كأنه النهل. لا بدع. . . فالصدق والحق ـ كالشوق والتوق ـ وحدهما ـ في زينة النفس يملآن فيها الفراغ.

لم يترك الشيخ شيئاً من الحواشي، وهي المنبثقة ـ أبداً ـ من دائرة الجوهر، إلا ولمسها في تطوافها الصادق: تكلم عن جدود النبي في أمة الجزيرة، وهم الأبعدون، شبه الملموحين، مع الذين أصبحوا معروفين في حقبات التاريخ... وراح يهاجر معهم زرافات زرافات، ثم أفواجاً أفواجاً، إلى كل جهة من جهات الجوار، ولاسيما الجوار المشدود بأرض الشام والعراق، وأرض البصرة والكوفة، أو الأرض التي ترضع من أثداء النيل... لقد امتزجوا بالأرض التي حلوا بين ظهرانيها، واشتركوا مع القدامى فيها بالعمران والانتاج، وأدوا قسطهم مما أحرزوا من فهم وعلم، حققوا بهما أبجديات وحضارات.

وتكلم عن الجدود الأقربين، ومن أميزهم الهاشميون الطالبيون والمطيبون بظهور النبي. هنا ابتدأ الكلام الحميم: عن الأب، وعن الأم، وعن الولادة، وعن الفتوة، وعن السلوك المتفرد بالمزايا والصفات، وعن الزواج، وعن الانجاب، وعن تعلق الأمين محمد بعلي كما يتعلق السحاب بالغمام، وعن تحسسه بارتجافات ممغنطة ومنزوفة من تأودات الروح وعوالم الغيب، وعن الاختلاء في غار حراء كأنه تفجير التأمل واسترفاد التخيلات.

لا شك في أن الأحلام كلها قد استنزلت من عوالمها وراحت تتجسد في الحروف الموسعات، وراحت الرسالة تفتش عن الدروب لتملأها بالتنزيل الهابط من علو السموات... وابتدأ الصراع بين حق تنتصر به قيمة الإنسان، وباطل تنحط به قيمة الإنسان.

من مكة إلى يثرب تم الذهاب، ومن يثرب إلى مكة تم الآياب... من هناك ـ هروباً ـ إلى هنا، ومن هنا ـ رجوعاً ـ إلى هناك، تمَّ النصرُ بسواعد الأنصار، وقرّت عين الرسالة وتحقق الإسلام.

هنا استفاض حديث الشيخ والتهب ببطولات الأمس، وراح يتكلم عن صدق الأنصار باقتناعهم بروعة الرسالة... وتكلم عن كل الوقائع الحربية التي حصلت بين المدافعين عن الرسالة والمتنكرين لها، لاسيما معركة أحد، والخندق، وخيبر، وقينقناع... واستفاض الحديث عن دخول المنتصرين مكة، وتحطيم أصنام الكعبة، وتحرير الجزيرة من عبادة الأوثان.

هنا توقف الشيخ قليلاً ليفهم إمامه الصغير المستغرق في الاصغاء، أنّ كل ما عرضه حتى الآن هو حاصل تمهيدي وتحضيري يعيِّنُ قيمة الرسالة من خلال الجهود الطويلة والثقيلة، والمهج العزيزة والمبذولة، من أجل الانتصار بها رسالةً يقوم بها ـ وحدها ـ مجتمع الإنسان... ولقد رأى أنه من الضرورة أن يحيط الإمام علماً بها، حتى يُلِمَّ بكل الشؤون.

هنا ابتدأ الفاصل الثاني وقد ارتدى ثوباً أجل وأوسع: تناول المجتمع وأهمية المجتمع، وتناول الجزيرة وتاريخ الجزيرة مع كل ما فيها من رمال، وواحات، وقبائل، وحبال أطناب، وتوقف ملياً على كل حرف من حروف الرسالة، وكم هي ـ وحدها ـ الناطقة بجهود الرسول ونبوّة محمد... وتكلم عن الإمامة المرصوفة على المتانات النادرة، تركيزاً على عبقرية فذة اسمها «علي»، ووصولاً إلى تحقيق باهر مختوم بانتصار المهدي المنور بالحق في مجتمع الإنسان... سيكون المهدي، وهو الإمام الأخير المرتجى، اندماجاً حضارياً في مطلق مجتمع من مجتمعات الإنسان فوق الأرض، يحققه العلم الوسيع بالحق، والفهم، والعدل، والنظافة المثلى التي تحرزها حقيقة الإنسان.

أما العلم المطلوب في إيصال المجتمع إلى حقيقته الناصعة، ونزاهته الجلى، فهو الذي تبشر به الرسالة وتحتويه من دون شرح ولا تفصيل، وهو الذي يتوسله المجتمع، بعد أن يكون الباطل المخيم تحت أوتاد

الجهل قد ضرب سنانيره في المجتمع وكاد يشلّ أوصاله. . . وعندئذٍ فإن المعاناة الطويلة من جرة أذياله، هي التي تحضر الانتفاضات الرصينة للتخلص من رعونانه وغباواته المستهجنة. . . سيكون العلم ـ وحده ـ ملفوفاً بالرسالة، في تحقيق الثقافات المنتصرة على الجهل والظلم، ومصّ الدم من كل وريد تنبض به مهجة الإنسان في مجتمع الإنسان.

لم يرد الشيخ إلا أن يختم حديثه بهذا القول:

ـ أرجو أن تأخذ مني عذري يا سيدي، فأنا ما قصدت أن
أرشدك، بل أن أطلعك، بأن كل ما قلته في مسمعك هو
جزء زهيد مما ستحيط به في مطلع الغد
جدك النبي، يا إمامي الصغير، هو الذي زرعك في الإمامة. . .
لو لم تكن لها ما زرعك. . .
الأمة ذاتها ـ في حاجتها إلى العلم ـ ستفتش عنك ـ
حتى تجدك. . . ولن تجدك إن لم تكن أنت في الحجم
الوسيع الذي يعبي ضلوع الدائرة. . . وليست الأمة إلا الدائرة،
وهي المؤلفة من كل فرد فيها، ومن كل يوم لها،
ومن كل عمر تطول به فسحة الغد. . .
ولن تكون الدائرة إلا في متانتها، وإلا. . . فإنها ـ من لحظة إلى لحظة ـ هي المنهارة.

العلم وحده يا إمامي الصغير، يحضر الركائز، ويمتن الخيطان التي ستنفتل حبالاً، ومن يوم إلى يوم أطول، تشتد الحبال وتنشدّ بالقبضان.

عندما يتسع العلم ويزهو، وتتملكه الأمة ويغدو في موعدها المثقف، يكون قد حان الوقت لانتصار الحق والتعبد له. . .

إن الأمة كلها ـ في الوقت ذاك ـ ترفض أن ترى في ساحاتها العريضة حاكماً يرنو إليها وفوق صدغه نقطة سوداء.

تفوه الشيخ بمثل هذا النهج وهو كأنه الحالم... ثم تحول نحو الفتى ولفه بعينيه وأكمل:

ـ لو أن الأمة بلغت هذه السوية الرهيفة لما ريعت عينك
برؤية جدك الحسين ممزقاً فوق الرمال..
ألا تقول الآن معي:
إن الجهل هو معتم البصائر.
وإن العلم هو المزين الضمائر.

لقد وصَّاك جدك الرسول بالعلم الكبير، لا بالعلم الصغير...
فالعلم الصغير هو الذي تتزيَّن به وحدك.
أما الكبير فهو الذي يربو اليوم ليكبر به الغدُ الذي يتألف منه الدهر، والذي هو بحجم الرسالة التي هي الأمة في حقيقتها العظيمة.

خذ العلم ـ بهذا الحجم ـ إليك، وفتش عنه إذ يفتش عنك وهو يأبى إلا أن يجدك.

ـ والعلم ذاته سيفتش عنك حتى تفجره للناس ـ ولو أجهدك ـ فاطلبه قبل أن يطلبك.

فتّش عن حملة له في مصر وجنديسابور فلك فيها أهل أوفياء...
نالوا من جدك سماء، ولن يمنعوا عنك استجابة النداء.
وأيضاً فاطلبه من الهند... ومن الصين... ومن كل رجا من الأرجاء...

حتى من الاغريق، فهم الذين انتقلت إليهم ـ من جدودك الأقدمين ـ تلك الحضارات.
فالعلم حق... وهو كالنور هبة من الله...
ولن يُحْجَزَ النورُ... تحت مكيال...

ما تلفظ الشيخ بالكلمة الأخيرة، حتى انحدر خفيفاً خفيفاً برأسه على ركبتيه الساجدتين،،، وغلفه الصمت:

بعد لحظات صارمة، أدرك الإمام الصغير أن صمتاً ساجداً تناول الشيخ إلى جده الحسين، وجده الرسول... بعد أن أدى الوصية ووفى النذر...

(٧)

ما كانت يثرب تعرف الحزن الطويل المعصور من ألم النفس، إلا بعد أن أغمض النبي عينيه واندمج في حقيقة الذكر. لقد حفرت له تحت مئذنة المسجد جدثاً موصولاً بالقبة التي تخفق كل يوم بالنجوى العلية، وهكذا الحزن نوَّرها ـ هذه اليثرب ـ حتى غدت به كأنها ذوب من العشق المقدس.

وعندما غرق علي في فجوة الجرح المدمَّى، عجنت يثرب حزناً بحزن حتى لا ينتسى الحزن الرفيع.. ولما انصبغ الرمل في كربلاء بالصبيب من دم الحسين، هبت إلى بقيع الغرقد توقظ الاثنين: فاطمة الزهراء بنت الرسول، وابنها الحسن المؤمم، وهو يتلمظ الثمالة في كوبه المسموم، وحزمت ـ يثرب ـ الثلاثة المطهرين، فصارت ضلوع الحزن خمسة يلامس بعهضا بعضاً في مردات الحنين...

يا لك ـ يثرب ـ والحزن يغرقك الآن في عمق التأمل، وقد صمت شيخ من أبنائك الميامين المعمرين اسمه جابر بن عبدالله الأنصاري، بعد أن تفوه ـ طويلاً طويلاً ـ بحب الرسول. ها هو اليوم يصمت بعد أن زرع الأشواق كلها في لب الشبيه بجده، حتى يتقن العلم الصغير، ويبني به دوحة العلم الكبير...

إن الأمة جمعاء يا جابر تدرك أنك حملت وصية وعرفت كيف تزرعها في الأذن الذكية والوفية... فكيف ليثرب ـ وقد مارست روعة الأحزان ـ وهي الثقيلة عندما تكون شقّاً من قضية، أن لا تبكيك وأنت منها العريق في ادراج الرسالة.

العلم الكبير والعلم الصغير

(١)

منذ أكثر من سنتين والإمام الصغير في رفقة الشيخ الكبير، يجالسه، ويتذاكر العلم والشرح بشغف واشتياق، ولكنَّ اشتياقه ـ في الجلسات الأخيرة ـ راح يسوح به إلى اصغاءات يغشاها كثير من ذهول، وكان بدوره ـ هذا الذهول ـ يأسر الشيخ فيضاعف الجهد من تظهير الصور. إنها الجلسة الأخيرة ـ بالتمام ـ وقد أذهلتنا أيضاً، تمتمتها شفتاه المشتاقتان. ولثمتا الصمت.

ومنذ هذه اللحظة الكبيرة تلبَّس الذهولُ وجه إمامنا الصغير، على أن لا يفارقه كل العمر. لقد كان هذا الذهول ـ في المبتدأ ـ نوعاً من التبصر في صدق القضايا الكبيرة تدعو الإمام إلى تفهمها والغوص في مخارجها المتشابكة الخطوط، وها هو الآن ـ هذا الذهول ـ يمزجه الفتى بحزن يحرك الدمع حتى يغزو المآقي، وهو كأنه الحزن ذاته، يصفُّ الإمام الصغير مع الباكين في يثرب قرب أبيه زين العابدين، ولمَّا تنشفْ بعدُ عيناه على الشهيد العظيم أبيه الحسين... وها هو ـ هذا الذهول الأصيل ـ يتدرج ويتدرج، حتى يستحيل إلى مهابة مطبوعة بوقار... إن العلم الذي دعاه جابر إلى أن يفيضه على المجتمع، هو الذي سيكون ألوان هاتيك المهابة، وعمق ذاك الوقار.

(٢)

ولكن الإمام الفتى، وإن تصورناه ـ تجاه فقدانه الشيخ الشبعان من رفقة جده الرسول ـ غارقاً في حزن لا يجوز أن يصمت... إلا أن حُزنه هذا كان في عكس ما نتصور: فهو لديه ـ الآن ـ ذهول عميق، تأبى النفس إلا أن تنغمر به، كأنه الفرح، تنتعش به الذات في تجلياتها الصادقة والصافية. إن هذه التجليات بالذات، هي التي نقلت الشيخ. إلى ذهن الفتى، وانسكبت فيه ـ به ـ عندما تكلم لا عندما صمت... نقلته روحاً ولا بدناً... نقلته أريج الزهر لا ورقه.. نقلته حركة لا هموداً... نقلته ضراماً لا رماداً... نقلته اتصالاً بالرسول لا انفصالاً... نقلته انفتاحاً بالرسالة لا انكباباً في الجهالة... نقلته علماً صغيراً يزهي النفس، ثم علماً كبيراً يزهي الأمة بالمعارف والمطارف، لا بغاء يحقر الذات، ويطيل عمر الذئب والضب، والخفاش في مجتمع الإنسان.

بهيٌّ هو جابر في ذهن فتاه النجيب... لقد وصله بجده الرسول وصلة حياة تنعش القلب، والعقل، وكل خلايا النفس، وكل طويات السريرة... فحرام نعتبر الشفة التي تكلمت: ماتت إذْ صمتت، فهي حية بما نبست، وذلك معناه: لغو وجود كلمة الموت في قاموس الحياة... أما الشفة ـ ولم تنقشها كلمة ـ فهي التربة المعقَّمة، فلا الموت تعرف، ولا الحياة تطالها برشة من اكسيرها المحيي.

على مدى بضع وعشرين سنة ـ في ما بعد ـ كمرحلة اعدادية سبقت تسلم الإمام مسؤولياته المعنية له في فسحة العمر، راح الإمام يمضغ كل حرف من حروف الكلمة التي صبها الشيخ الصامد الآن في خلية الذهن، على أن يركز كل ما يشتق منها في خلية الضمائر، جنباً إلى جنب مع كل المجتنيات المنبثقة منها: علماً، وفنا واداءً، وفيض أرخيات. فالمضمار

الطويل في حياة الأمة، ومجالات الاختيار، هي التي تعين حجم القصعة المسكوبة فيها وجبات الطعام، ولن يلونها ـ بالخير ـ رغيفاً شهياً، إلا العلم الآتي من مناجم الروح، كأنه الرشد المشطور من لمسات الخمائر، أو كأنه تفجير الحق تحمله الآيات المولعات بهمسات الضمائر.

كل ما قاله الشيخ المالىء فسحة البال، مضمخاً بضمير الرسول ينظم القوالب لمحاصيل الغد، كان همَّ الفتى في التحليل، والتعليل، وتوسيع الردهات لمدى الاستيعاب... لن يكون الزمان، إن لم نلقحه بأنباض المكان الخافق بروح الإنسان.

(٤)

لقد كان كل ما قاله الشيخ في مستوى الهمس، لا يفسر المعاني، بل إليها يشير، فشأنه كالعناوين يُلْقَى الواحدُ منها صغيراً في صدر المقال، يحمل الإشارة الملغَّزة، وعلى المقال مهمة التفسير، ومشقة التطويل... من هنا كان الفتى يتلقف الاشارات، من دون أن يرهق صاحبه المسن بشرح مستفيض، مكتفياً بها ـ ما أمكن ـ لأن الكشف المطلوب عن حياة النبي، وعن كل المرامي المرصودة في مضامين الرسالة، لا يكفيه عمر، ولا دهر، حتى يتم شرحه واستيعابه... إن المجالات الفسيحة في مجتمع الإنسان، هي التي تستعين بالتحقيقات الرخية، ترجِّحُهَا حقاً، وخيراً، وأضاميم من جمال ـ تنبهاتُ العقل، وتيقظاتُ النفس، وكل الأحاسيس الباطنية تزرعها الحياة في عمق الطوايا... إنها كلَّهَا هي المكتشفة، كلما امتد أَمَامَ المشاة طول الطريق، وهي التي تتوضح فيها البينات: بأن الرسالة التي انتشى بها نبي المسلمين، هي من الحياة بنت الحياة، وهي بنت الظلال المفيئة، يطول بها الوروف بقدر ما يطولُ بها الخطوُ فوق الممرات.

إن الفتى الذي سمي ـ قبل أن تلمح عينه النور بعشرات السنين ـ بالباقر، هو من التيقظ الفكري والروحي، في سوية مرموقة، جعلته، يحاور الشيخ الوقور، مكتفياً منه بالاشارات النائمة في حروف العناوين، على أن يأخذها ـ مع الوقت الطويل ـ بالدرس والتنقيب . . . سيكون الغد كريماً جداً، بتفسيح الهنيهات، يدخل فيها العلم ـ بخطواته المضيئة ـ ينورها رويداً رويداً، حتى تستفيق ـ في لواعجها ـ مهامس الآيات.

(٥)

العلم الكبير والعلم الصغير . . . وأدرك الإمام الصغير أنّ العنوان الملفوف بضلعين هو ذاته الوصية. يحملها إليه ـ من جده الرسول ـ مبلغ أداها ثم انطوى إلى الحق الرفيع . . .

يا للعنوان . . ما أوسعه في فسحة المضامين، وما أروعه صغيراً كحبة الحنظل في اجاصة مرِّ الصحاري، تعانقها الرمول المنداة بالأشواق، وإذا بها ـ مع كل صباح شهي الفجر ـ تتمدد جذوراً، وتتماشق ساقاً، وتتفرع أغصاناً، وانساماً، وافياء، وأفناناً، وأطياباً غنية.

إنه العلم الصغير، مجبيّاً من ضلوع المعرفة ـ يتناوله الفرد في المجتمع ـ ويوسع به خلايا ذهنه وجيوبَ روحه، وآفاقَ عزمة في التصعيد والادراك، ليكون له قسط في الجلوس بين الملتمِّين حول المائدة التي تولمها الحياة لأبنائها الأحياء.

أما العلم الكبير فهو دائرة أخرى تنمو وتتوسع بالأفراد المرتادين حياض العلم، فيزدانُ به المجتمع، ويصلبُ عوده، وتبهو مداركه، وتصفو أحلامه، وتتوضَّحُ تحقيقاتُه، وآمالُه، وأمانيه الكبار.

العلم الصغير هو زينة الفرد في طاقاته المحدودة ـ إنه ثقافته الخاصة على قدر معين ـ قد يوسعها الاستيعاب ويبرز بها إلى نوع من عبقرية،

ولكنها تبقى في نطاقها الفردي محصورةً في مميزاتها الفذة من دون أن تبلغ الوزن الواصل إلى حدود المطلق.

أمّا العلم الكبير فهو ذلك المؤلف من كل طاقات الأفراد الذين يحتويهم المجتمع عاديين ومتفوّقين على السواء، ليكون له، من التفافهم في دائرة الحوض، قوةٌ محزومة من ضلوع المعرفة التى هي شمول العلم الوارد من جميع فروع الاختصاصات التي لا يتمكن من احتوائها الفرد، مهما توافرت وتضافرت طاقاته، بينما يكون المجتمع هو المنيع بمجموع أفراده، وهو المتمكن من مثل هذا الاحتواء المعزز بنوع من الشمول.

أولاً وأخراً هو المجتمع في لوالب الحركة وعمليات التحريض: فإذا تشدد به العزم وتحركت فيه بوادر اليقظات، فإنه إلى مسيرة ناشطة تخلصه من شلل الركود، وتدفعه إلى مجالات التنقيب والاستنارة، أما التحقيق فزيادة تنمو على مهل في عدد الأفراد الموفورة لهم السبلُ السعيدة.. بقدر ما يزداد عدد المثقفين تزداد ـ بالمقابل ـ مناعة المجتمع بمداركه الرخيّة.

هكذا يتعزز العلم الصغير، ليتوسع ـ بدوره ـ العلم الكبير. أما العلم الصغير فطاقات منثورة، وأما العلم الكبير فوحدةٌ مجموعةٌ في وحدة الاطار. أما وحدة الاطار فهي الحق النابت من واقعه الأصيل، من حقيقة المجتمع، من سعيه الصادق، والصريح، من روعة الحق الذي هو علم وسيع، ومعرفةٌ مضيئة، وكشفٌ حثيث وأمين عن جوهر الحياة في لب الإنسان تصدق به مجتمعاته فوق رحاب الأرض.

والعلم الصغير منوعات متعددة الاختصاصات وملونة المواهب، يتطلبها المجتمع ويوزعها على مناكب الأفراد، والموزعين فوق أرجائه، حتى تتسدد من مجموعهم كلُّ حاجاته وجميعُ أغراضه... أما المران والمراس، والملازمات الوفيرة، فهي التي يكسبها الفن ثقافة عاشقة تميزها بالخبرة الأنيقة المتمكنة من الصدق المصيب. لكل فرد في المجتمع جناح

خاص يعمل فيه بنوع من خيطٍ ومكُّوك يكمل بهما ـ بين يديه ـ توضيب النسيج، أما النسيج فهو القميص الذي سليبث يرتديه المجتمع على أمل أنه سيزيد ـ مع طالع الأيام ـ متانة وزهواً.

الحاكم بدوره هو فرد بيده خيط مبروم على مغزل، وأمام صدره نول يلعب بين سداه ولحمته مكوك يشهد للحاكم بأنه بارع ورشيق بتمريره بين تشابك الخيطان... وإلا فإن المجتمع هو الخائب بارتدائه قميصاً لا يستر عرياً...

إنها الحتميات تقول: لن يكون علم كبير إن لم يجمع أنواله علمٌ صغير صادق. ولن يكون كذلك علم صغير ناجز، إن لم يمهد له المجتمع المركز، بُسُطَ الشوقِ، والتوقِ، ويؤجِّجُهُا بلواعج النفس ويقظات الضمير...

(٦)

لقد كانت الوصية صغيرة مقتضبة، وفي منتهى البساطة. لقد سكبها حاملها الشيخ جابر في اذن حفيد الرسول، بهذا المعنى:

(أنت شبيه بجدك يا سليل النبوة ـ فهو يقرئك السلام.

ويسميك بالباقر ـ فقم بمهمة تفجير العلوم حتى تستقيم لأمة جدك النبي طوالعُ الأيام).

لم تكن الوصية بأوسع من هذه الاشارات، ولكن الإمام الصغير راح إلى دوحة نفسه يستفسرها عن تراكيب الاشارات ذاتها التي كان الالهام يستمطرها على الرسول من مجادلها البعيدة الأغوار، يسوقها الفن إلى بيادر الفهم حتى تتناولها المدارك وتمضغها على مهل فتنهل من أزبادها متطلباتُ الأيام.

لقد أدرك الإمام الصغير، بعقله المشع ويقينه المتبصر، وبنوع

خاص، بتنقيبه الملح عن الحروف كيف ترقص بها المعاني، من لون إلى لون، كلما تغير بها رصف الاشارة. لقد لاحظ الإمام الصغير أنَّ جده الرسول هو ـ وحده ـ أبرع من يصوغ اشارة، وأنَّ كل آية من آيات كتابه هي من ذات الصياغة، ومن أروع ما تتجلى به اشاراته في سكبها المشرع، إنها تكتسب معنى جديداً ولوناً جديداً من اللحظة ذاتها التي تطرح ـ هي ـ فيها. . . إنها للإنسان، وفي كل جيل من أجياله الصاعدة، تفسر حاجاته، وتتلون بها كما يتلون الضوء بما تصطبغ به زجاجة المصباح.

ما أخذ الإمام الصغير الوصية إلا واعتبرها اشارةً تحمل ألغازَهَا وأبعادَ مراميها، ولقد أدرك ملياً أن الوصية إلى احتكت بلبِّه، هي من نوع الآيات التي تتدرج بها ميادين السور. وبعد التبصر والاصغاء الى تأودات الحروف في ملامح الأبعاد، توضح له أن الأمة التي اهتاجت بها الأشواق إلى كتاب تقرأ فيه كل ما يعلمها كيف تمشي خطوات سليمة فوق المفارق في الدروبّ هي التي منَّ الله عليها بالكتاب، وها هو بين يديها ـ هذا الكتاب ـ وهو مليء بالاشارات الناطقة بالآيات، وما عليها إلا أن تتعلم القراءة حتى تشع في عينيها أضواء حميمة تنقلها من غيهب الجهل إلى بهجات البصيرة.

(٧)

ما على الأمة إلا أن تتعلم. . . يا للوصية في حروفها الصغيرة وفي بساطتها المنيرة. . . كيف تطرح الأغمار على البيادر، وتدعو الأمة كلها إلى المفتوت من خيرات السنابل. . .

إن الأمة كلها هي المدعوة إلى الغرف الثمين، بكل ما فيها من واحات ضئيلة وحرات ثقيلة، بكل ما فيها من قبائل مشرورة، يشتتها التفتيش عن المراعي فلا تجدها إلا في الأحقاف هزيلة يابسة. . . بكل ما

فيها من مدن تظن أنها في مظلة من عمران، بينما هي في جاهلية لا تعرف كيف تصل حرفاً بحرف من حروف الهجاء حتى تؤلف الجملة المفيدة... مكة وحدها، في عمرها القديم وشوقها المقهور، حاولت أن تؤلف جملة مقروءة، فبنت الكعبة وكستها بمئات من الأوثان. ولو لم يعلمها نبي من صلبها أين عليها أن تضع الحجر الأسود في مكان الاشارة الرامزة إلى هالة التوحيد، لبقيت حتى الآن ـ ربما ـ ساجدة تحت أقدام صنمية...

ولكن النبي العظيم حطم أمام مكة وأمام يثرب، وأمام القبائل كلها المشرورة فوق مساحات الجزيرة، كل الحجارات المنحوتة بازميل أعور، ونجّى الأمة كلَّهَا من الاشارات السقيمة التي من لون الأسود العنسي. وها هو الآن يوصي واحداً من أحفاده بأن يحدب على الأمة ويعلمها القراءات الوسيعة، لأن القراءات ـ وحدها ـ تنجيها من الجهالات والوثنيات، والمجاعات، ومن الموت البطيء، ومن الذل الذي يحنِّط الروح بالمهانات.

لقد سبق للشيخ جابر أن لمح أمام الإمام الصغير عن قصد جده الرسول من احاطة الأمة بعلم وسيع لا بد منه في ضبط مسيراتها في خضم الوجود، وهو الذي سيخلصها من أسباب التردي بقدر ما تنهل من موارده في يقظاتها المتعاقبة.

أما العلم الوسيع فليس أبجدية واحدة، بل انه عدة أبجديات، سيكون له أن يبتدىء بوصلة حرف بحرف... انه ساعتئذٍ الأبجدية البسيطة، يعلم كل فرد من أفراد الأمة كتابة اسمه الذاتي، مقروناً باسم أبيه، واسم أمه، واسم القبيلة التي تحسبه راعياً من رعيان نعاجها، أو فارساً من فرسانها الذين يذودون عن الحوض.

ستبقى الأبجدية هذه هزيلة جداً، إلى أن تعي الأمة أن الفردَ فيها هو

أكثر من رقم وأكثر من وشم يدقه شيخ القبيلة على كل زند من زنود أفراده العبدان. . .

وهو أكثر من اسم يتباهى به بطل كعنترة، وفي كفه رمح طويل السنان. . . .

عندما تعي الأمة أنها ليست إلا مجموعة أفراد، وأنّ كل فرد فيها هو طاقة من طاقاتها الفاعلات، فساعتئذٍ يعززها الادراك أنَّ مناعتها هي في كل شؤونها الحياتية على الاطلاق، وفي كل طموحاتها إلى كل تحقيق وكل رجاء، ولن يكون لها منها منال متكامل إلا بتحقيق قيمة الفرد، وتعزيزه طاقة مترابطة بكل طاقاتها المتشابكة. . . فكل فرد فيها هو الأمة ذاتها.

أليست الأمة ـ في تعريفها الكامل والشامل ـ هي النساج والحداد والصانع؟ والمفكر والفنان والمبدع، والزارع والحاصد والفران؟ وحامل المعول وحامل المسطرة وحامل القلم؟ والسائس والمخطط والمعلم؟ أليست الأمة كلها فصائل فصائل، أو مدارج مدارج، في هرمها المتنامي من بسطات الأساس حتى النقطة المتناهية في عب السحاب؟ أليسَ لكل فرد في الأمة محلٌّ في شدة المسند، كما لكل حصاة في بسطة المدماك في الهرم المتعالي متكأ من صلابة يصمُدُ بها خلودُ البناء؟.

من هنا يكون على الأمة الواعية أن تمهِّد لرفع سوية الفرد وتعزيز طاقاته الفهمية والادراكية، ولن يكون لها إلا التماسُ العلم يوسع لها آفاق المعرفة بأبجدياته المنوعة الفروع، وقراءاته المتعددة الأصوات. فالعلم الذي تحتاجه الأمة ليس هو في أبجديته البسيطة التي تعلمنا قراءة أسمائنا، وقراءة تباهينا بمسلسل الأنساب، إنما هو في أبجدياته المتعددة والمتفرعة والمتطورة تطوراً مدهشاً، مع كل لحظة من لحظات العمر؛ فالأمة ـ في محض وجودها ـ هي تسلسل معارف ومهارات، في الزراعة والصناعة وكل مجالات الاقتصاد، والفرد فيها هو الشبكة المترابطة بكل ما لها من أغراض، ولن تنتهي المهارات، وكذلك ستتزايد الأغراض، وسيطورها

الفن إلى كل جديد تفرضه الاستقصاءات وعزيمة الاختبارات... من هنا أن العلم الصغير الذي تحققه الثقافات الفردية ستتوزع منشوراته على كل مهنة من المهن التي يحتاجها مجموع الأمة في يومها الحاضر وفي يومها الآتي... ولن تكون المهن إلا وسيعة الأرجاء... فالزراعة ـ مثلاً ـ هي المنوعة في الأرض مع تنوع الفصول و المناخات، وتنوع الأساليب والمهارات والنشاطات والمختبرات... وكذلك ستكون الصناعات والتجارات، وكل مهمات تعزيز الاقتصاد، بالاضافة إلى الشؤون العظيمة الأخرى التي هي جوهر الأمة ومداها الكبير في الوجود... إنها قضاياها الفكرية والروحية والكشفية عن الحقائق التي تربطها الحياة بوجود الإنسان، ولا بد من التدرج إلى استيضاحها في حقيقة الرضوخ لمن هو مصدر الحق ومصدر المثل الكريمة والتقية التي لا ينهض كريماً وعزيزاً إلا بها مطلق مجتمع من مجتمعات الإنسان.

كل ما ذكر من هذه الأغراض سيكون مجزءاً وموزعاً منها على مجموعة أفراد الأمة، وسيكون الجزء موازياً لطاقة كل واحد بمفرده، وإذ ما يَبْرَعْ الفردُ بانجازه يصبحْ كلَّ ثقافته الخاصة... ستجمع الأمة في سجلاتها الصادقة مجموعة البارعين في كافة حقولها المتحركة بجميع أفرادها المتخصصين والمثقفين بالعلم الصغير الشامل التنويع ـ وعلى مهل أنيق ورتيب ـ ستمزج الأمة مجهوداتهم المختارة، وتستخرجُ منها عجينة جديدة تخبزها رغيفاً يسمن بها علمها الكبير.

غداً... وليس اليوم... راح الإمام الصغير يتابع تخيلاته وتأملاته وتحليلاته، ويستخرج منها المعاني والصور... غداً ـ وليس اليوم ـ يكون للأمة تمتع بعلم ينمو صغيراً ثم يكبر رويداً رويداً إلى أن يصبح احتراماً تزين به سجلاتها التي لا تزال ضائعة في الردهات العتيقة. لن يكون لها ـ بين ليلة وضحاها ـ اتقان الكتابات، والقراءات، وتنقيحُ السجلات وتدبيجُهَا بالرسوم... إن ذلك رهن بتخطيط فيه كثير من أضواء

السموات... جدي ـ وحده ـ أدرك ما تأخرت الأجيال عن ادراكه في قديمها الصامت... وسيكون لي، من تنفيذ وصية جدي، بداية يركز عليها الغدُ آمالَهَ المعهودة... أصبحت أدرك ما هو موكول إليَّ كإمامٍ مسؤولٍ عن رسالةٍ وعن رعية... وأصبحت أدرك ما معنى تفجير العلمَ حتى يتسهّل فهمُ الرسالة و تنظيمُ أمور الأمة التي هي مجموع الرعية... لن يكون لي أن أفجر البحر، بل أن أسهل الوصول إلى شطأنه السخية، فأنا طاقة صغيرة من طاقات الأمة، وسأوسع دلوي بقدر ما أوسع عزمي حتى يكون غرفي من العباب أغزر... أما الدلاء فعليَّ عن أفتش عنها وأوفرها لكل عزوم يناديه ارتفاع الموج... أليس هكذا يبدأ تحقيق العلم الصغير بتوزيع أليم في أفواه القرب؟ وهي التي سيحترزها خزان الأمة ويغتني بها في اطاره الأكبر؟.

اثناهما ـ العلم الصغير والعلم الكبير ـ يغذيهما شط واحد، وغرف من بحر واحد، هو بحر العلم الذي هو معرفة منوعة الألوان والأزباد، ولكنها، في النتيجة الصامدة، وحدةٌ في تأليفها ثقافات الأفراد... وهكذا فإن الأمة هي مجموعة هذه الثقافات التي تعزز بها ثقافتها الشاملة. ومن هنا يحتاج العلم الصغير إلى التنوع الذي يبدو وكأنه لا ينتهي...

فالزراعة، والصناعة، والتجارة، وعلوم الاقتصاد، والحساب، والهندسة، وكل العلوم الأخرى التي يترابط بعضها ببعض ويشتق منها علم الجغرافية، والتاريخ، والتعدين، والتنظيم، وادارات الحكم، وضبط السياسة، ومعالجة الفكر بالتأليف والبحث والتحقيقات الفلسفية... إنها كلها المواد الكثيرة المهمات، تحتاجها كلها الأمة في تنظيم معاولها، وترتيب أمورها... وهي التي سيتناولها العلم الصغير فيتثقف بها وتغتني بمجموعها الأمة في علمها الكبير.

وتابع الإمام الصغير نجاواه: لقد شرح لي جدي بلسان الشيخ جابر، كيف أفتش عن العلوم وموادها في كل بقعة من البقاع التي تأصلت

ببمارستها، وهكذا سأنهج. فالأمة بحاجة ملحة إلى علوم الفيزيا ومعادلات الكيميا وأرقام الحساب، وإلى تفهم التاريخ، وأنواع الجغرافيات، وتحديد المساحات وخطوط الهندسات، وإلى اكتشاف المعادن المدفونة في جوف الأرض، وإلى فلسفة وفقه وطب، وكلها توفر للأمة صحة العقل وصحة القلب وصحة الروح، وهي جميعها ثقافات توسع العلم الصغير في اطارات العلم الكبير.

أصبحت الآن أعلم أن الغد الكبير والوسيع هو الذي يفتح المصاريع على الأبهاء، وهو الذي يصحح الخطوط ويخففها من عقد الأخطاء...

فالمعارف كلها هي محاولات يحركها اليقين المستعين بالممارسات المؤمنة يصدق العزم المزروع في عمق النفس التي هي جوهر اللب في الإنسان، والتي هي سرّ من أسرار الطوية.

لقد قلت ولقد عنيت: إن الغد هو الذي يأتي ويحقق الأمنيات، لا اليوم الذي خرست نبضاته... سأستعين بالجامعة التي بسط مقاعدها جدي الإمام علي في ردهات المسجد، وقد نقشت حيطانَهُ لجدي الرسول مهجةُ الأنصار... سأفتح في كل ردهة نافذة صغيرة أضيئها بمادة علمية ولو هي الآن بنور شمعة تنوسُ بها الضآلة... ولكن الغد الآتي بالشوق الملح سيضاعف جدلات الفتائل، لتأخذ من أُعطيات الضوء ما ينير عتمات يثرب ويبقيها دائماً قاعدة منورة... أتراها تصمت ثرثرات الجهل وتترك للجامعة مُهَلاً ينمو بها الغد الطويل الذي ستستنير به الأمة بتوسيع معارفها ومداركها وممارساتها المشتاقة؟.

(٩)

صدقاً نقول: لقد عزم الإمام الصغير على تجهيزالعمل الكبير وتنفيذ الوصية بكل ما تتستر به من بعدٍ وعمقٍ والحاح.

لقد أدرك أنه فرد، وأنه طاقة محدودة لا يملك بحر العلم حتى يفجره في اللحظات المريدة... ولكنه سيبدأ بتسهيل السبل إلى ارتياده من شطأنه تاركاً للأجيال توسيع مجالاته وتنظيم مجانيه.

صحيح أنه اعتبر ذاته طاقة فردية محدودة، ولكن ارادته وبنيته الفكرية، والروحية، والشبهية بجده الرسول، أبتا عليه إلا ولوجاً عميقاً يطل به إلى كل ما هو موكول إليه... وهكذا فإنه لم يعالج فرعاً من الفروع العلمية التي راح يفتش عن مدارجها، حتى يوسع بها ردهات الجامعة تحت سقوف المسجد، إلا ونال منها رذاذاً تجلَّى في طلعته ـ مع الأيام ـ مهابةً ملونةً بوقارٍ تماسكت به إمامتُهُ العليمة، وجعلته اطلالةً من فوق منبر، تحلَّق، حوله أربعة آلاف من الطلاب المريدين العلم الصغير الذي سيصير كبيراً... إذا الأمة عرفت كيف تصنع الكثير من مثل هذه القوارير، وتخزن العطر فيها، فيطيب لها الغد الشهي، أو فنلقل: ذلك الغد الأكبر.

على مثل هذا النوع من الاستيعاب المشهَّى، تضافرت معارف إمامناً الصغير، على طول المدة التي مرت عليه في ظل الإمام الكبير زين العابدين، حتى إذا ما استدعاه أبوه لاستلام زمام الإمامة ـ لأن الارادة المرقومة على اللوح العريض هي الملبَّاة بالرضوخ المؤمن ـ تَوجَّهُ إمامُنَا المشدود بالعزم السديد إلى سجادات أبيه المنقوشة بركبتيه المطهرتين، وبسط عليها كل ما جناه من علم وقصد يتم بهما تنفيذ وصية ترتفع بها سوية أمة لم يردْهَا نبيُّهَا البصير إلا كبيرةً وجليلة وهادية.

لقد بلغت معارفه ـ في كثير من الفروع العلمية التي توسعت بها ردهات المسجد في يثرب درجة تؤهله لأن يكون موسوعة... ولقد رأيناه ـ فعلاً ـ مريداً ولجوجاً في التقصي عن كل ما يزيده علماً وفهماً واطلاعاً، وهو في حوار لا يتعب مع الشيخ الوقور جابر، يستفهمه عن كل ما تلقنه

من رفقة النبي الكريم والعليم. . . ولقد نقل إليه الشيخ الغيور كلّ ملامح جده، وكلَّ مقاصد الرسالة، وكلَّ ما تتبطّن به آيات النبوة التي فيها كل حق وكل خير وكل علم وكمال. . . . وشرح له المقاصد والنهوج المقدمة لفلاح الأمة، مع كل ارتباطاتها بتاريخها القديم، وحاضرها الضائع عن حقيقة الفهم، ومستقبلها المحتاج إلى علم ينور لها الدروب. . . . ولقد لمَّحَ له عن معنى الأمة، ومعنى الرسالة، ومعنى الإمامة، ومعنى السياسات الجاهلة التي تغرق الأمة كلَّهَا في المزيد من النكد.

ولقد مررنا بفصل سابق في هذا الكتاب عنوانه: خطوط عريضة ـ وكان لا بد من الاحاطة بها بعض الاحاطة في بسطة التعريف عن النبي العظيم وعن مقاصده القريبة والبعيدة في تقديم الرسالة مكفكفة بفيض من رموز واشارات تجلّى بها كلُّ حرف من حروف آيات الكتاب. . . وكان لا بد من تعزيز أهمية البحوث بالتطرق إلى تحليل وتعليل يقدمها المنطق حول النهوج المرسومة لصيانة رسالة لا بد من ترسيخها في النفوس حتى تصبح فاعلة. . . إن النهوج هي التي كانت محللة ومعللة، وكانت بمجموعها متفرعةً من القصعة الكبرى التي هي الأمة، والتي هي بمعنى الأمومة المحتاجة إلى نظامٍ إماميٍّ ممتَّنٍ بالدرس والفهم والمران المتزن بالرسالة، حتى إذا ما يمر جيلان أو ثلاثة على الأكثر، تجد الأمة ذاتها في انضباط منتظر، لا تضيعُ عنه ولا تتعثَّر.

إنها ذاتها هذه البحوث التي تفرد بها الفصل المشار إليه في هذا الكتاب، قد آحرزها باكراً ـ في علمه واطلاعه ـ إمَامُنَا المميَّز ـ وبشكل معمق وموسع. . . وإنه لمن الحظ الميمون لهذا الكتاب أنّه ـ بدوره ـ قد استوحى معانيها من سيرة الإمام بالذات، وهو جالس بين يدي الشيخ الأنصاري، يقرأ في عينيه حكايا جده الرسول ملفوفةً بمطارف الإلهام.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)




الباقر

بعد أن سجد الإمام زين العابدين آخر سجدة فوق التراب ـ وغاب ـ
تسلَّم الإمام الصغير قيادة السفينة.
إنه بحار أنيقٌ عزيز السارية.
وجَّه السفينة ـ وحده ـ في عرض.

العباب

إن المسجد في يثرب
ـ وهو في العالم الإسلامي كله ـ

أول محراب

أصبح أوَّلَ جامعةٍ علمية باسم أهل البيت،
فَجَّرَ فيها كل طاقاته الموهوبة.

إمَامٌ عباب

جلله بمها بات العلم.
نبيُّ المسلمين،
وبشفتيه الطاهرتين
هجأ حروف اسمه:

الباقر





سجادات الإمام

بالحقيقة ـ لم يصل الإمام إلى استلام مسؤولياته الإمامية وهو فرد عادي، إن نطاقه أوسع بكثير من ذلك، فهو ممثل أمة وموجِّهُ أجيال، وهو بشكل مميز ـ منتدب للقيام بدور ريادي حصره في دائرة جليلة لا يتمكن من ملئها إلا الموهوبون الطليعيون.

باكراً جداً باشر الإمام بلملمة طاقاته الذاتية، وسريعاً ما أدرك ثقل ما هو منتدب إليه:

إنه ـ أولاً ـ إمامٌ، بكل ما للإمامة من معاني محصورة بها منذ الأساس. ولكن الإمامة الآن، بعد أن مر عليها خمسة عهود، ابتداءً بجده علي، ووصولاً إليه بالتمام، هي بأمس الحاجة إلى تدبُّرٍ جديدٍ، تلمسُ به حقيقتَهَا المعهودة...

صحيح أن جوهر الإمامة ما تغير ولن يتغير: فهو غاية مرسومة لضبط أمور الأمة في عب الرسالة التي تضبط ـ بدورها ـ كل شؤون الأمة... ولكن أمور الأمة لا يتم ضبطها ما لم تتدخل الإمامة بتخليص عين الأمة من غشاوات الغباء، وتلقينها فنَّ القراءة...

ـ (إنه التدبر الجديد الذي حمله الشيخ جابر من فم الرسول إلى حفيده الباقر، ليكون إماماً مهتمّاً بتعليم الأمة، حتى تحظى الإمامةُ بخطوطها العريضة).

وإنه ـ ثانياً ـ ممثل أمة وموجه أجيال... وممثل الأمة هو ذاته الامتداد من مكفكف الأمة بالرسالة وآيات الكتاب، إلى خطوط النخبة الموكول إليها الاصغاء إلى تمتمات الحروف وقراءة الاشارات... أما موجه الأجيال، فهو المومأ إليه بسبابة النبي الرائية، بأن يوضح للأمة خطوطها العريضة، وليس لها من الميسور ـ إلا العلم يبتدىء صغيرا، ولا يكبر إلا بعد أن تلتهب ـ باحتوائه ـ خطوات السنين... إنه للأمة ـ كبيرا فاعلاً ـ كلما تقدمت به الأجيال، واستضاءت به المنجزات العريقة.

ـ وهذا أيضاً هو خط التدبر الجديد، وعلى الإمامة أن تحصر كل جهد إلى تحقيق العلم وتركيز قواعده... فلا سياسة، ولا ادارة، ولا أي نهج يصيب مغانم الأمة، ما لم تتعلم الأمة قراءات صحيحة تقرأ فيها: عافيتَهَا، ونموَّهَا، وكلَّ الحقائق التي ترتفع بها إلى سوبة إنسانية مرموقة.

وحَصَرَ الإمامُ همَّه بالتجرد لمهمة نشر العلم، باقتناعه التام بأنه وحده الموصل الأمة ـ رويداً رويداً ـ إلى سبلها المرقومة في سجل الهدى، وقاموس الحضارة... وإن الويل والخيبات التي أصابتها في العهود المنصرمة، سبتقى هي إياها، وعلى ازدياد، في ظل سياسات أمية وعتيقة، لا تعرف الأمة كيف ترفضها، ولا كيف تُجَلِّسُ من اعوجاجاتها، آكانت أموية ـ حربية ـ عفَّانية رقص بها يزيدٌ منها، أمْ مروانيةٌ ـ حَكَمِيَّةٌ ـ هشاميةٌ ستنتهي بعبد الملك بن مروان، بعد أن حقن شرايين الحجاج الثقفي بدماء مئة وعشرين ألف قتيل... أم ستكون ـ كما تبدو الاشارات ـ عباسية سيهول بفداحتها السفاح ومنصور الدوانيقي...

وانصب الإمام ـ بعد أن تسلم مقاليد الإمامة ـ على تحصينها وتزويدها بكل ما يضبطها في الخط الريادي، تاركاً للسياسيين التقليديين خطوطهم البائسة، يتلاعبون بها على هواهم، ـ مطمئنين ـ من دون أن

يكون من الإمام ألا تدخل ناعم ووقور، يرجوهم به أن لا يزينوا أحكامهم إلا بالعدل الرسالي.

على مدى ما يقارب أربعة عقود، كانت ردهات المسجد في يثرب، تصغي ـ لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية ـ إلى علم جديد اسمه علم الجغرافيا، نقب عنه الإمام الذي هو الآن باسم الباقر، لقد وجد له حملة أخذوا جزءً منه في مصر مترجماً عن الكتب السريانية، بواسطة الجغرافيا البطليموسية، ووجد أيضاً من أخذ في مصرعن طريق الأقباط علوم الفيزياء والفلسفة الإغريقية، وعلم الهيئة، وعلم الكيمياء؛ ولقد وسَّع أيضاً فروع جامعته ومباحثها، مما جعل الوالي عمر بن عبد العزيز يقدّر هذه الجهود الكبيرة التي يقوم بها الإمام، ويقوم بتوسيع رقعة الجامعة في المسجد بحيث بلغت أربعين ألف ذراع.

الإمام وحده كان يقوم بتدريس وشرج لكل العلوم القديمة والحديثة فأدخلها ردهات المسجد، بعد أن تعمّق في قوانينها ومؤدياتها، ولم يفته. أن يدرس التاريخ، والهندسة، والحساب، والطب وعلوم الكيمياء التي سيطورها ابنه الإمام الصادق وسيقرع أبواب المعادلات فيها، مع تلميذه العظيم النابغة جابر بن حيان، على أمل أن يتحقق الطموح وتنجحَ المحاولة برفع قيمة المعادن الرخيصة إلى مصاف الذهب... إن القيمة العلمية تبقى ـ وحدها ـ أعزَّ ما يحصل عليه العلماء في مجتمع الإنسان، وهي الأبهى من لموع الذهب.

نعود نقول جازمين: إن السجادات التي ورثها الإمام الباقر عن أبيه الإمام زين العابدين، هي التي استمرت تزدان بمعادلات الوقار... إنها الآن تعكس مهابات العلم على الوجه الذي أراده النبيُّ سنيّاً. إن المسجد الذي توسعت ضلوعه، لم يبق مسجداً ـ فقط ـ بل أصبح ـ أيضاً ـ جامعة علمية من الطراز الرفيع.

جامعة في يثرب

كأني بالجزيرة العربية قد ولدت ولادة جديدة يوم انسحب الطريد الشريد من شعاب مكة تشد به الهجرة إلى يثرب.

وكأني بالرجل الثاني تتفتح أزاهير روحه وهو ينام في فراش الهارب في الليل حتى يغطي انسلاله في العتمة التي سينبلج منها نور آخر تستنير به يثرب ويخلد فيه اسمها كالشمس.

عند انبثاق الفجر اكتشف المجرمون المتآمرون على حياة النبي أن الطريدة هربت من بين أيديهم واندغمت بعتمة الليل، أما البطل المغطي الانسحاب فهو العلي، وما شأنهم معه، وعلى كتفيه عَباءة رثة، مرقوعة بعشر رقع؟.

حمل العلي فواطمه الثلاث وامتطى الصبح ولجَّ به المسير. على أبواب يثرب تم الالتقاء الكبير، واندمج القوم بأهلهم من بني النجار، واحتك سلك بسلك، كأن للنور سلكين ـ إذا يتلامسان ـ ينبلج الضياء... وهكذا شاء الله أن يحتك نور الوافدين إلى يثرب بمعدن الصفاء الهاجع فيها... منذ هذا الحين انغمرت يثرب بالنور واكتسبت اسم «المدينة المنورة».

أسخى ما تنورت به يثرب كان في التحام حروف الآيات فوق أرضها المطهرة. هكذا انطلق الأنصار منها حاملين نوراً وهداية، في حقيقة

المؤازرة التي اندفقت تحرر الجزيرة كلها من الكسل الرابض في قواعد أصنامها المتربعة في كل زاوية من زوايا كعبتها المتحجرة بالرمز اليابس. .

انطلاقاً من يثرب تمت حركة الدورة الحياتية ـ الفكرية ـ الروحية التي اغتسلت بها كل الجزيرة العربية والتي ستغتسل بها أمم في الأرض، علمتها الرسالة كيف تعلي مئذنة الصلاة والحمد فوق كل مسجد شبيه بأول مسجد شبعت جدرانه من الصدى المائج من فم الرسول في يثرب.

لقد كان المسجد في يثرب أول جامعة جمعت الناس، لا لتعلمهم ـ فقط ـ كيف يسجدون، وكيف يصلون، بل كيف يأكلون ـ أيضاً ـ وكيف يشربون، وكيف ينامون، وكيف يسيرون، وكيف يفكرون، وكيف ينهجون. . . إن في القرآن وفي آياته المسموعة، كلَّ علم، وكل حق، وكل خير، وكل غاية. . . فليأخذوا منه ما يستنيرون به، وليستزيدوا قدر ما يتمكنون وقدر ما يحتاجون. . . إن في الرموز المطوية فيه آياتٍ أخرى مخبآت، تستحث العقل حتى يغوص خلف ما يتخبأ في المبهمات. إن تشغيل العقل بكل ما فيه من طاقات في بنية الإنسان، هو من جملة المقاصد البعيدة المنثورة في حبكة القرآن.

تلك هي حصة يثرب من الطريد الوافد إليها، حاملاً معه هدية لها من ثقلين بنت بهما أول مسجد تنورت به أرضها، وأول مئذنة ترفعت بها سماؤها، وأول جامعة توسعت فيها مداركها. . . يا للأساس المدرج على الأمتنين المتلاصقين في وحدة المنهج .

الكتاب ـ بكل ما فيه من حق ونور وعلم ـ هو الأمتن الأول، أما الأمتن الثاني ـ والمشتق منه كما يشتق الشعاع من دائرة القرص ـ فهو طاقة إنسانية معبرة عن حقيقة الجوهر، تطيبت اسلاكها بطبيعة المصدر، فاندمجت به لأنها منه في واقع الانبعاث.

إن أهل البيت هم الثقل الثاني في التصاق الجذر بنواة صاعدة منه،

واصلةٍ ما اختبأ منها تحت التراب، بما نما منها فوق التراب... لقد كان عليٌّ تلك النواة الإنسانية النابتة من هجعة النور في أسلاك الطوية... ألحت عليه عين النبي، وانسكبت فيه كما ينسكب الفن في مسطرة المهندسين، لضبط الخطوط في استقامة السطور الطويلة.

عليٌّ هو المسطرة المرقَّمَةُ بالاستقامات السديدة والهاجعة بين كل حرف وحرف من الحروف المزروعة في حقول الكتاب. على المسطرة هذه يكون الجهد في ربط المساحات بنوعية المسافات... أما الحقيقة المتوخَّاة فهي التي ستجدها الأمة في غدها الآتي وقد بناها الحق، والعلم، وحقيقة الرشد، وألمعيَّةُ الصواب.

ما خبأ النبي علياً مكانه في الفراش حتى تتم له النجاة، بل حتى تتم للرسالة والأمة سبل الحياة. لا لعمري، فإن في القصة الطريفة لبّاً تتلقط به نباهة الذات: فانغلال علي في فراش الرسول، معناه اندماج تجسيدي تطهيري لقيمتين جليلتين وحَّدَتْهَما حركة الروح وانطباعات الحفيظة. ألم يقل النبي بعينيه وشفتيه: علي مني وأنا منه، فمن أحبه فقد أحبني... الهم وال من والاه وعاد من عاداه...

إنه النهج النابت من عبقرية الفن، لالقاء الرسالة النابعة من جهود الروح وعمق المعاناة، بين يدي قيادي أصيل مقتدر على تحمل التبعات. لقد وجد النبي الحريص على كل حرف من حروف كتابه، أنّ علياً هو الطاقة الأرجح في كفة الميزان، وعليه ـ وحده ـ ترتيب قاعدة الهرم حق تبلغ الأمة غدها الكبير، وتنال حظوتها فوق الأرض بين عنقود الأمم.

عليٌّ هو الأساس المطلق، ولن يكون أحدٌ غيره رأسَ الزاوية، لأنه الفاهم الأول المستجيب، والممرَّن الأندر المستطيب، ولن تكون القيادة الفاعلة إلا من مثل هذا الجوهر الأصيل... وإلا... فإن الأمة تنام نومة أهل الكهف حتى يمنَّ عليها الدهر ـ بعد طول التجارب وزحمة المعاناة ـ

بطاقة أخرى يكون للأمة فيها المثيل.

وبقي العليُّ في الخط الجانبي ـ بعد أن أغمض النبيُّ عينَهُ عن الخط الأمامي وخسر نداؤه رجاءَ التلبية ـ وبقيت يثرب في قاعدة التركيز، تصغي إلى صوت المعيَّن في صدر الإمامة التي ركزها ـ قبل أن يغفو ـ عقل النبي.

وبقيت يثرب ـ أيضاً ـ مدينة منورة، وتوسعت بوابة المسجد فيها حتى أضحى المسجد ـ مع الوقت ـ جامعة تغص بالطلاب. لقد تولاها الإمام علي في بعض الفترات الهادئة... وغذاها قليلاً الإمام الحسن عندما انسحب من الكوفة وهو تعب يطلب النقهة... وصمتت بها الأيام مع الإمام الحسين الذي راح ينقش الدرب ـ بدمه ـ بين مكة ومخيمات كربلاء...

أعار الجامعة هذه ـ كثيراً من الاهتمام ـ الإمام زين العابدين بعدما حجب حزنه في قلبه على أبيه الحسين.

إن الإمام الصغير محمد الباقر، هو المتربع الآن فوق الحصير، بين يدي أبيه لإمام، ينهل الدروس نهلاً شهياً... إنه الشبيه بجده الرسول، ورنة صوت الصحابي اليثربي جابر بن عبدالله لاتني تدغدغ مسارب أذنيه بصدى الوصية الجليلة. لا شك أن شوق جده الرسول يدعوه لأن يأخذ العلم من هذه الواحة التي يتعهد أفانينها الآن أبوه الإمام الطاهر السجّاد، ويفجره بين يدي الأمة المحتاجة إلى العلم المفسر والمدَّخر، وهو الذي ستذوب من فرط بهائه كل العتمات.






الدورة الثالثة

عهد الباقر

ـ دراسة:

مع الإمام علي
مع الإمام الحسن
مع الإمام الحسين ـ
مع الإمام زين العابدين
عقدة الحكم
والباقر

نجي الرسول

الرهان

واقع الرسالة
واقع الأمة
واقع الإمامة
واقعة السياسة
واقع أهل البيت

النهج

الجامعة

الاحاطة






عهد الباقر ـ دراسة

من الاصابة تناول عهد الباقر بنوع من شبه دراسة تتناول الإمامة منذ البداية حتى الوصول إليه:

نظرة عامة:

إنه خامس عهد من عهود الإمامة المشتقة ـ لغة ـ من الأم التي هي ـ بالضبط ـ الأمة بمعناها الوسيع. لقد سبق لنا في هذا الكتاب إن تتطرقنا إلى تلميحات وافية عن هذه المواضيع الكبيرة التي استقطبت كل اهتمامات النبي الكريم، مما حداه إلى التبكير في تنسيق القوالب الصائنة مسيرات الأمة في خطوطها الصاعدة إلى كل تحقيق يضمن لها المستقبل الزاهر. لقد كانت الرسالة أولى البواكير المستنزلة من سموات الوحي مصبوبة في بوتقاتٍ قوالب، أما الإمامة فهي المشتقة من ضلوع الحنين الهاجع في لب الرسالة، ليكون زفرة منها تعالج به كل لمسة يهددها بها ذيل عقربي.

إنها الأمة ـ في استغراقات النبي واستلهامات الرسالة ـ لولاها لما انطلى غار حرائها بأضواء فضائها، ولما انسكبت في حروف الكتاب آيات سمائها. فلتكن الإمامة غلاف الرسالة، تصون الأمة في كل خطوة من خطواتها، وتوصلها إلى المحجَّات الأمينة المليئة بالقسط والعدل، ونلك هي الهداية تزين مجتمعات الإنسان، وتلك هي أهداف الرسالة تملأ الأرض بالنزاهات الجنان.

سيكون الإمام علي أول عنقود في عريشة الكرمة المرزومة باثنتي عشرة دالية حاليات القطوف، كل دالية تأخذ من ربضات الجذور مساقها إلى رواق طيب الشمس، وعفيف الظل، حتى إذا ما انقضى ـ مستتباً ـ عهد الإمامة، من جيل إلى جيل، تكون الأمة كلها في المجالات المرسخة بالمران الموزون بالعلم الوسيع المزين بالإيمان، وآيات الشمائل.

تلك هي الإمامة في مداها المتنامي، ربط النبي بها أمته رباط الاحتراز، طرفه الأول مشدود بآيات الرسالة واسمه علي، وطرفه الأخير محرر من زوغات العقد واسمه المهدي، وهو وصول الأمة المفترض إلى تكامل اجتماعي متين الثقافة، لا يبقى محتاجاً إلى من ينهاه عن ارتكاب المنكر، فمرور اثني عشر عهداً ممرساً في الحق، والعلم، والصدق العفيف، قمين بأن يجعل الأمة المثقفة تعيش المعروف وتجهل ما هو المنكر.

أنا لا أحب أن أقول: لقد خيبت الأمة احتراز النبي، ولم تلبه رأساً في تنفيذ احترازه... فالأمة كلها قد احتضنت نبيها واعتنقته في امتصاص الرسالة. لقد رأيناها ـ جموعاً جموعاً ـ تمشي وراءه في عيد الغدير المعروف بحجة الوداع، وإن لم يكن لها ـ في تلك اللحظة ـ ألا تفهم سليفي بريءٌ تنادي به بأعلى صوتها: الله أكبر، الله أكبر...

أجل، لم تخيب الأمة نبيها المشغوفة به... وخيبته الفئة القليلة التي لم ترد أن تفلت من يدها مقاليد الحكم، وأساليب ربط القبائل بخيطان الزعامات... فليكن لها أن ترى كل اشارات النبي إلى عليّه المميز، وليكن لها أيضاً أن تسمعه يقول: (وإن تولوا عليكم عليّاً ـ ولا أراكم فاعلين ـ تجدوه هادياً مهدياً، يأخذ بكم إلى الصراط المستقيم) ـ فإنها ستتجاهل، وهي تضمر في سرها: وليكن للامارة شيخها الصدّيق ولتكتف ـ بعليٍّ وباثني عشريتها ـ تلك الإمامة.

تلك حقائق بينات لا يني يسردها التاريخ، يتعلق بها المنطق. . . أما احتراز النبي الباقي للأمة كلها في حقيقة التسجيل: بأنها لن تدرك شأواً، حتى ولو عاشت عشرات الحقب، ما لم يأخذها العلم الوسيع إلى مجالاته الوثيقة، وفي ذلك الحين ـ فقط ـ يصل بها الوعي المتكامل إلى الصراط المستقيم.

لم يصل خط الإمامة إلى استلام الولاية ولا في أي وقت من الأوقات المرسومة، حتى يمهد للأمة مجالات الوعي المتنامي بها إلى الرقي المنشود. . .

وبقي كل إمام مختبئاً في خليته الرمزية، تساندُه الرعية مساندة مجزوءة، ضمنت له عند القيمين على الحكم احتراماً تفاوتت مقاديره. أما الفئة القليلة فهي بعض المحترفين السياسيين المتزعمين المأخوذين بجمع المغانم، إنهم هم ذواتهم في كراسي السيادة، لا يعلِّمون الأمة إلا التمادي بالخضوع، والتلاشي بالخنوع.

لقد اعتصم كل إمام من الأئمة الأربعة الذين سبقوا إمامنا الباقر، في خلية مقهورة. . . لقد كانت عهود الثلاثة الأولين بشكل ـ خاص ـ كأنها عهد واحد: عهد استشارات، ومحاولات، علهم يتمكنون من رأب الصدع، وتحويل الصراع من جادة إلى جادة، من جادة الزعامة القبلية العتيقة، وهي المستميتة في سبيل الحصول على المغانم، عن طريق الوصول إلى كرسي الحكم الذهبي اللون، والشهي الاغراءات، إلى جادة الرسالة القويمة بالحق والهدايات، والتي هي ـ وحدها ـ قد حققت أمة، وهي تستردها رويداً رويداً من غياهب الثرثرات. . .

إنه صراع أليم ومميت بين القديم والجديد، القديم الهائج بعنعناته الزعامية، وجهالاته الأمية، والجديد الرسالي، بطروحاته الفكرية الروحية،

وقراءاته التي لم يرد أن يفسر حرفاً من حروفها ذلك الحاكم المتزعم المعميُّ بغباوة التقليد. . .

إن الأمة بدورها ـ وهي التي ترزح تحت وطأة الصراع ـ لم تتعلم بعد كيف تتركب حروف القراءة. . . عندما تلتحم تحت عينيها مسلسلات الحروف، تخرج من شفتيها ـ كلمة بعد كلمة ـ جملةٌ تتألف منها قولة الحق في تحويل الصراع إلى الجادة التي يكون ـ فيها ـ حق، وخير، ونبل، وصراط مستقيم.

مع الإمام علي:

لقد حاول الإمام علي أن يعلم الأمة ـ وهي التي لم يفته مطلقاً أنها مركز الثقل، وأنّ لها ـ وحدها ـ أن تتحكم بتوجيهات الصراع ـ بعض قراءات عامة لا بد لأي مجتمع من مجتمعات الإنسان من أن يحيط ببعض معانيها ومراميها. وهكذا راح يشرح: ما هو الحق، والعدل، والخير، والنبل، وكلها ـ للمجتمع المشتاق ـ ضلوع الصراط المستقيم.

ولكن العلم ـ في حقيقة الفهم ـ هو ممارسات تطبيقية عملية، أكثر مما هو شروحات كلامية ـ نظرية، وإنه لا يؤخذ في المجتمع الوسيع إلا من مجال إلى مجال، وتلك هي عين النبي العليم، تربط فهم الرسالة بخط إمامي يمتد باثني عشريته إلى ما ينوف عن ثلاثة أجيال، تنالُ الأمة ـ من مداها ـ رسوخاً ثقافياً تعيشه الأمة بعد أن يصير دماً من دمها، وروحاً من روحها، وعصباً من أعصابها القاطعة بها كل الدروب.

لم يتمكن الإمام علي ـ وهو ركن الإمامة ـ من تطبيق ما هو أصيل من مبادئه العبقرية، إلا تطبيقاً قصيراً، ما كاد يُلْمَحُ، حتى انغرزت في خاصرته نصلةٌ مسمومة، حقن بها الصراع جولة للباطل، كسرت زجاجة المصباح.

مع الإمام الحسن:

أتراها كانت المحاولة الثانية ـ يقوم بها الإمام الحسن ـ أقل من أمثولة لم يتمكن من شرحها، أكثر مما تمكن من تطبيقها أَمامَ عين الأمة وواقعها الذي لم يفهم بعد ما هي القراءة، ولا ما هي روعة التطبيق. . . .

لقد حاول الإمام الحسن شرح ما اقتنع به خط الإمامة: بأن الأمة التي تشقها الخلافات القبلية، والزعامات الصنمية، والتهرجات الوثنية. . . . تهدر دمها في عتمة الجهل، وتعمي عينها بعجاج الغبار، وتفقد وزنها في كفة التحقيق، بينما الوعي يجمعها إلى وحدتها النامية بمعادلات الانتاج.

ولكن الإمام لم يتمكن من إسماعِ شروحاته، لأن الصراع الذي ولدته الأنانيات الجاهلة، قد حطم ـ من أمامه ـ البوق، وشوّه المذياع، فعمد إلى التطبيق الحي، فتوقف عن القتال إلى السلم، وكان بمكنته أن يحرك القبائل، وأن لا يقطع حبل الفتائل. . . وكانت الأمة ـ بدورها ـ غير مؤهلة لقراءة ما كتبه الحسن في صفحة السلم الذي يحقن دمها من هدره في فراغ لا ينتج حباً، ولا ينمي زرعاً، بل يولد حقداً يتسلح به المتزعمون لبسط سلطانهم على العباد.

مع الإمام الحسين:

أما الإمام الثالث. . . فيا شوق الأجيال الأبية إلى دمه الثمين. . . تتَمَشَّشُهُ، لتستخرج منه طعم الإباء في جعب النبل، ونوع الرفض في حقائب العنفوان. . .

إنه الحسين، مشى الحجاز كله بقدميه الحافيتين، وأوصاله المقهورة. . . مشى الإمامة كلها فوق أرض الجزيرة، مشى اليمن، مشى

يثرب، مشى مكة، مشى غار حراء، مشى خطوط النار في دائرة الربع الخالي، حيث خاط قمصانه المشوية بلهيب السطوع، مشى الخطوط كلها في تمدد الصحراء بين مكة تصلي ركوعها بين يدي من خشّع الكعبة ورفع قبابها إلى مآذن السماء، وبين الكوفة تعطش كربلاؤُها، ولا تريد أن تشرب إلا إذا جاءها الفرات ـ من تلقاء ذاته ـ تخشعاً إليها حتى تطيبه مناهلُ الكوثر. . .

لو سبق للأمة أن تعلمت القراءات في جامعاتها المفتوحة منذ ثلاثة عهود لكان لها ـ مع الحسين ـ أن تفهم ما يشرح لها عن معنى المشي فوق كل الدروب التي مشاها الإمام الحسين ـ إنه يشرح لها أنّ الدروب كلها في سبل الحياة ، لا يدرك طولها ولا عرضها، ولا وعورتها، إلا المشاة المعانون وطأة المشقات، وانهم هم الذين يمارسونها، ويذللون وعوراتها، ويؤهلون جوانبها بأظلال مفيئة، وأنفاس تطيبها الرياحين.

إن المشاة أنفسهم يحققون الخير، و الحق، والنبل، بعد أن يمشوا إلى مواردها، ويتعلموا القراءات، والمقارنات بين ما يحقر الذات الإنسانية، وبين ما يعززها بالكرامات، بين ما يحققها مجتمعاً قوياً ـ بانتاجه ـ وما يفرطها إلى ضعف، ومذلة، وهوان. . . إن العلم ـ وحده ـ يكون من حصة المشاة، بفضل الممارسات، وهو الذي علم الحسين رفض الجور والظلم، والتعسف بمقدرات الأمة، من أجل تعليمها ـ بنوع من القدوة الرافضة ـ ان العنفوان هو حقيقة الإنسان، في مجتمع الإنسان، فإذا عمت المجتمع معاييره التقية، توارى من تلقاء ذاته الثعلب المرتاغ، وتحلت بلون الشمس عناقيد الكرمة المدلاة على جذوع العرائش. . . وما أطيب الحسين شهيداً يجسد القدوات حتى يمرع الجنى، وتثمر المواعيد التي تنتظرها الأمة التي لا تموت منها الأمنيات، ولا الرغبات، ولا الانتظارات، ولا احترازات النبوة.

مع الإمام زين العابدين:

أما الإمام علي بن الحسين فإن الأمة كلها بما امتد منها إلى الكوفة ومخيمات كربلاء، لم تعرف كيف تمَّت صياغة اسمه بمعادلات عجيبة ولطيفة، حولت فيه حزن النفس من غبار كربلائي عجنته الهمجية بلعاب الكواسر، إلى دموع حفَّارة في عمق اللواعج، فاندفق الألم ـ من الأغوار السنية ـ مزاهر مزاهر، توشي الأرض بالصلوات البكر، فإن الخشوع الوسيع هو الذي يصفِّي الإنسان من مخالبه، وأظافره، ويدغمه عطراً بسموات.

إنه زين العابدين، ما احتوته يثرب حتى امتصَّته أدعيةً يزينها التقى بفهم، وعلم، وبعدٍ، فكريٍّ وروحيّ... إنه أدب محبوك كما تحبك السجاجيد التي كانت تنام عليها في ايران أمه الأميرة شاهزنان قبل أن يتعرف إليها الإمام الحسين، ويقدم لها سجادة أخرى هي سجادة الإسلام.

ولكن الهارب من شام يزيد منحوراً بكل كراماته، ما التجأ إلى خليته اليثربية حتى ينام في مخبأ... إنما جاء يصوغ أدباً على وزن أدب جده في نهج البلاغة، وراح يدور به في يثرب، يعلم الناس كيف يتخلصون من رجس النفس، ويعشقون الحق موصولاً بسماء. لقد راح ينقل نفسه إلى كل يثرب، ويشرحها ورعاً، ويطبقها قولاً ونهجاً.

لقد كان الإمام زين العابدين مدرسةً نقالة، ساعةً في ردهات بيته العتيق، وساعتين في بستانه الناهض بالنخيل، وأكثر من عشر ساعات في المسجد، وفي رفقته في أغلب الأحيان ـ فتىً تنام في عينيه دموع حمر، ولكن شيئاً آخر، تحت جعادة شعره الأشعث، ما كان يريد أن يسفكها إلا إذا نقعت غليلاً، أوشفت عليلاً...

فعلاً ـ لقد قصد الإمام زين العابدين تعليم كل يثرب الصلاة

الرائعة، وبنوع خاص، فإنَّ الصلاة في مقاصدها البيعدة. . . ولكن الواقع ـ أيضاً ـ فليوصف: فيثرب بالذات ـ وهي بين يديه ـ لم يتمرَّس بالقراءة فيها إلا قليل قليل من مثل جابر الأنصاري، أما الأغلبية كلها فسجايا جميلة تعشش فيها البراءات، وهي تلمس حيطان المسجد ـ للتبرك ـ من دون أن تعرف كيف تكتب اسمه، أو تدرك كنهه.

أربعة هم الموصولون حتى الآن بخط الإمامة المحجوزة، إنهم احتراز النبي العظيم في بناء الأمة واستمرارية نشوئها من ساعة الصفر إلى الساعة المنتظرة، ولكن الأربعة جميعهم وإن كانوا من صفوة النخبة فإن الأمة لم تعرفهم إلا بأسمائهم المسموعة، لا برموزهم المقروءة، لأن مدرسة واحدة لم تنشأ في يثرب، ولا في غير يثرب، اللهم إلا المسجد الذي سيوسعه الباقر. . . لقد بناه اليثربيون ببراءاتهم المعهودة، ونِعْمَتِ البراءات لو تم لها التعهد المرسوم. . . ولكن التعهد لم يحصل، لأن القراءة لم تحصل.

ثم أي واحد من الأربعة المنخوبين لادارة الأمة، وتعهدها على المجال الطويل لم يحجز في خلية ملغية ومنسية، ثم تمكنوا من شطبه بلعقة سم. لقد كانت المعركة الكربلائية عاشوراء الحسين، وبدلاً من أن يخطفه السم، خطفته الهمجية. . .

عقدة الحكم:

هل هي بسيطة عقدة الحكم في أمة لم تتعلم ـ بعدُ القراءة؟ إنه هذيان الأمة في واقعها ذاك، يسير بها من محطة إلى محطة، تتألف منها ـ بالنتيجة ـ مجموعات الكوارث. . .

لقد ابتهجت الأمة بأن الله ـ بعد لأي عسير ـ قد منَّ عليها بالكتاب، وعندما قدَّم لها ـ من خط بيده آيات الكتاب ـ لائحة باثني عشر نقيباً

يعلمونها قراءة الحروف وتخليصَهَا من المبهمات، قال له من يحسبون أنفسهم الأولياء:

ـ قَدْكَ قسطاً في كتاب... فنحن لها ـ قراءات الحروف ـ وفك الرموز، وحل المعميات...

إنهم لها أولئك الزعماء الأميّون، لا يتركون بقعة، حتى في الدهناء ـ إلا ويزرعون فيها مدرسة تعلم القراءة، وجامعة توضح القراءات، وكلية تخطط لتنشيط الزراعات والصناعات، والاختراعات، وربط الأمة بأفرادها الأولياء...

لماذا لم يدرك الزعماء أن الأمة وحدةٌ اجتماعية نامية بمجهودها الإنساني، وأنَّ الصدق والحق، والعدل، وتحقيق الانتاج، هي معاولها في السمو المنشود؛ وأَن الثقافات ـ وحدها ـ هي في حقيقة التحضير!! ألم يدِّع الزعماء هؤلاء، بأن لهم اتقان القراءات؟ فلماذا لم يقرأ ـ أي واحد منهم ـ هذه الحقائق منشورة في كل صفحة، لا بل في كل آية من آيات الكتاب؟.

ثم ـ لماذا أخذوا الكتاب؟ ولا يبدو أنهم فتحوه... بل فتحوه وما قرأوه... أيكون ذلك منهم حتى يقال فيهم: إنهم الملهمون، لأن كتاباً عظيماً يحملون؟.

أظنها خلف ظهورهم هذه الزريعة... وإلا لما حطموا أنيات المائدة، وقد قدمها لهم الرسول في اثني عشر مسنداً تثرى بها فخامة الدار...

وحده جاء الحكم في سياسات القبائل، يستدر لعاب الزعماء في زعاماتهم الجاهلية، ولن يعرفوا كيف يثقفون الأمة، لأنهم غير مثقفين!!! أما الأمة، فمهما يكن قسطها من دَرَجَات الثقافة، تبق بحاجة ملحة إلى

حاكم مثقف وصادق، يدير شؤونها في كل المعارج: قسطٌ، وعدل إلى صراط مستقيم.

أما الثقافة فهي أبداً مطلب أساسي، يشمل الأمة من خلال ثقافة الفرد، فتتوزع المواهب، وتتهذب المزايا، وتتوسع المعارف.

لم يكن في العصيان إلا هذيان وروغان... ولو أن الاذعان قدتم كما رسمه الذهن الصافي، ووشّتْهُ البصيرةُ الرائية، لكان للأمة نمو، وهدايات، وأضواء، وأبجديات، وكثير واضحٌ من القراءات.

والباقر؟

لقد جاء دوره في استطلاع الوتائر وتدبير المصائر، وتحويل الليل من غسق تموت فيه الأحلام إلى اشارة من ضوء يعقبها فجر جديد، ومعالجات جديدة، تتغير بها الأوضاع الراهنة والتي هي استمرار الرواسب، وقتل المواهب، ونشر الذعر في الأبدان والأرواح....

ـ ألاَ أن الأمة تستدعيني يا جدي الرسول، فأنت المزروع في طوايانا كما هو الفجر مزروع في أسارير الظلمات، ولن يكون للفجر إلا تلويحٌ بالظهور ـ كما لن يكون لايحاءاتك في ضمائرنا إلا تفسيرٌ ملبّىً... لقد سميتني ـ بلسان جابر ـ باسم الباقر ـ سأكون الباقرَ المفجِّر العلم يا جدي، سأكون بين يديك:

ـ نجيَّ الرسول ـ

نجي الرسول

إنها فرص سعيدة تلك التي توافرت لإمامنا الصغير يربو في حضن أبيه زين العابدين، وهاتفٌ يقرع أذنيه كأنه ناقوسٌ من ذهب الجنة، يحرك أوتار روحه، وعزائمَ لبِّه، وهو يردد في خلده:

ـ العلم العلم يا حفيد جدك الرسول

خذه إلى صنجك، وفَجِّرْهُ ـ يا نجيَّ الفجر ـ على الأمة تفجيراً.

فالأمة والإمامة صنوان في المعنى الكبير:

طحين راكدٌ ما لم يلتهب بأشواق الخمير.

إنها فرصة سنحت ـ لا شك ـ سربلته بالباقر... وقد تكون أيضاً بنت معاناة لا تزال حوملة في وجدانه، منذ كان عمره أربع سنين عندما ثقب ـ بسبابة كفه ـ بلاس المخيم في كربلاء، وشاهد بعينه المقروحة جده الحسين يعجن الرمل بدمهِ المفجور!!.

وتعززت الفرصة واندمجت بإيمانه عندما تم له احتكاك خاشع باهر، بشيخه الهاجع في ضميره كما يهجع الفجر خلف القمم الكبيرة... إن الشيخ جابر بن عبدالله الأنصاري، وهو شمعة هادئة النور، لململت فتيلتها من رفقة النبي وهو يغزل للجزيرة قمصاناً جديدة.

لقد اقتنع الإمام وهو برفقة الشيخ جابر، بأن العلم طاقات غزيرة، لا يمكن أن يستوعبه الفرد إلا لُمَامَاً، وهو إلى نمو، وتطور، واتساع، عن

طريق الاختزان، والتمرس، والمران: فالحاضر يتسع بقرعات الأمس، وكذلك الغد بما احتواه اليوم، ولكنه ـ ما لم يرتفع موجاً ـ ينطفىء زبداً، وتيبسْ دونه سجدة الشطآن.

ولشد ما أدرك أنَّ أمته، وهي أمة أبيه وأجداده إلى أجيال عديدة قبل جده الرسول، هي التي تعاني هبوطاً فاضحاً في حرارات العلم، وليس لها إلا تقاليد قبلية بالية، يستصرخها الزعماء التقليديون إلى عنجهيات رثةٍ تثبتهم في دسوت الحكم، وأبواق السياسة... أما الرسالة ـ وهي الأطروحة الثمينة التي هبطت لتنقذ، وتبدل، وتطور ـ فإنها، وإن قبلت: آيةً، وتسليماً، وديناً، قد جمدت في قوالبها، واستدعيت إلى السير في ركاب القافلة التي هي: شيخ، وزعيم، وقبيلة... لا نبوة، ورسالة، وإمامة...

أما النبوة، فإن السماء قد وهجتها، فليترك لها وهج السماء ـ أما التوصية بأهل البيت، فلهم يعود قبولها أو رفضها، ولن يكون ذلك قبل أن يغمض الرسول عن الأرض جفنا، ووقتذاك فلا شيء يضيره... أما الإمامة، فما عساها تكون عين الاحتياط في احتكارها إلى مدى الترسيخ، وجعلها في عب علي سناداً وثيراً؟ أليس التجاهل أغنم منها؟.

سبب واحد لا أكثر وجده الإمام الباقر خلف عصيان القوم نبيهم، وخلف تماديهم في أساليب الجفاء أو فلنقل: في أفانين العداء... لقد قسموا الأمة كلها إلى خطين متنافسين على امتلاك الأرض وامتلاك الهواء. فالأرض والسماء هما لبني حرب، وليستا لبني أبي العلاء... فلينقرض بنو طالب وينتهي العناء...

أما السبب الواحد الذي أحاط الأمة كلها بهذا البلاء، فهو في غيبة العلم عن الساحة العامة، وفي جهل القراءات التي هي سياسات فهيمة وحكيمة وتقية، تعرف الحرف، والرقم، وضبط الحساب، وتعرف الفيزيا،

والكيميا، والهندسة، وكل المعادلات، وتعرف الزراعات، والصناعات، والتجارات، وما هي الأرباح، وما هي الخسارات، وما هي البحور، وما هي الشطآن، وما هي الأفلاك، وما هي الأرض، وما هي السموات، وما هي الأمم، ومن هو الإنسان، وما هي العلوم، وما هي الثقافات. . .

العلم وحده يكون في حقيقة المعرفة، وحقيقة التحليل، والتعليل، والمُقارانات: بين ما هو حق يبني المجتمع، وما هو شر يفتته ـ وعندئذٍ تدرك الأمة أن النبي جاءها من علاء ليبنيها أمة راشدة وهادية، وأنّ العلم المرسخ في لبدة الأجيال هو الذي ينيرها وينميها في رحاب الرشد، وفي أحضان الهداية. وإنما المجتمع ترسيخ، ونمو، وظل ثقافات. أليست هكذا نظرة النبي إلى تركيز الأمة في حضن الرسالة وإحاطتها بزنار الامامة.

إنها بدهيات وحتميات، أحاط بها الإمام بعد أن كشفت له أن الطالبيين وعلى رأسهم الإمام علي، خسروا جولاتهم الإمامية التي رسمها الرسول، وذاقوا الموت والتنكيل، ولن يكون تشبث الخط ـ من بعدهم ـ برسالة الإمامية، إلا ملاقياً ما هو بانتظاره من أنواع التعذيب والتنكيل. . . أما أن تعرف الأمة أنهم من أجلها يعانون ويبذلون الروح ولا يبالون. . . فتلك أطروحة انموذجية قام بتسجيلها جده الحسين، وهي بانتظار من يشرحها حقاً، ويظهرها انتصاراً لقضية الأمة المفتشة عن الإباء: يرفض الذل، ويعشق العدل، ويثبت القسط بين الناس، ويقدس الحريات. . . وتلك نغمات ثرية، لن يحفرها في التسجيل إلا التثقف الذي رسم الوصول إليه جده الرسول في تنسيقه خط الإمامة.

كل ذلك أَلَمَّ به الإمام وهو في استقراءاته مع الشيخ جابر، ومع أبيه الإمام الساجد، ومع نفسه الغارقة في بحور التأمل. . . لقد دله الغوص إلى كل ماهية من الماهيات، وَسَّعَ بها معارفَهُ تحضيراً لاستلام المهمات. فالإمامة التي فرضها جده الرسول، إنما هي ـ بحد ذاتها ـ علم، واطلاع، واحاطة، وفوق ذلك فإنها واصلة إليه الآن بلون جديد فيه الكثير من

الاستحثاث على نشر العلم، وتكثيف الجهود، تعويضاً عما يناهز قر
السنين، خسرت به الأمة جولة تحضيرية كان على أئمة أربعة أن يرفع
ثقافاتها إلى سوية مرموقة توضِّحُ بها خطوط الصواب.

لقد فهم الإمام أن التعويض على الأمة لا بد منه فهي أب
الانتظار. وأدرك أيضاً أن ثمانية من الأئمة لا يزالون في حقول الا:
سيكون لهم ثمانية عهود طويلة سيملأونها بالجهود النفيسة على مد
يمتد إلى ثلاثة أجيال، وربما ـ إذا طاب الجو ـ إلى أربعة، وهي
كافية لترسيخ العلوم وحفر الثقافات التي توصل الأمة إلى الد
المرتجى ـ والهدي المنتظر.

وهكذا راح أيضاً يحسب الإمام:

لقد رشحني جدي الرسول ـ وأنا لمحة من وحيه ـ
لأن أبقر العلم وأنيله الأمة حتى تستنير به
وتجمعه لها رصيد هداية... وهل يكون لي ألاَّ أفعل؟
فأنا رأس ثمانية تنتظرهم الأمة في سلسلة الوعد.
فإن لم نهرع ـ منذ الآن ـ إلى تلبية ذكية،
فإننا جميعنا المهدورن...
وبالتالي... فإن الأمة هي المهدورة.
إلى أن يتم لها ولنا هذا الرهان.

الرهان

لم يتم وضوح لأي تصميم من التصاميم التي كان يعتزم على اتخاذها أي إمام من الأئمة السابقين، كما تم للتصميم الذي اعتمده إمامنا الباقر - إن الواقع الراهن، بظروفه وعوامله الراهنة، قد أَلَمَّ بها واحتواها بذكاء وفير، وهي التي وضّحت له الخط، وسدَّدت له العزم، وقوّمت له الدرب لاتمام الوصول. فلنشر قليلاً وباقتضاب إلى هذا الواقع الراهن، في عوامله الراهنة: من حيث هي محرضات تمكّن من درسها، واستيعابها، واستدراجها للوصول إلى هدف جليل.

واقع الرسالة:

عشر سنوات كانت كافية لاقتبال الرسالة ديناً شمل الجزيرة كلها ومسحها بمساحة الإسلام. وفي عيد الغدير الذي تمت فيه حجة الوداع، كانت الأمة كلها بين يدي الرسول تسجد خاضعة وهي تنادي: الله أكبر، الله أكبر، لبيك لبيك يا نبي المسلمين... وعندما أغمض نبي المسلمين عينيه في مدينة يثرب صمتت شفاه التلبية ضمن جدران السقيفة... لماذا؟.

واقع الأمة:

إنّها ذاتها الأمة التي أنجبت نبيها وتقبلت رسالته ديناً... إنها عظيمة

في سليقتها البريئة، ولو لم تكن بريئة وعظيمة لما أنجبت نبياً. لأنَّ لها من الشوق ما أكسبها قرآناً... ولأن لها من المغنم ما خشَّعها إسلاماً... ولكن... ما بالها ـ بعد ست وثمانين سنة من هجرة الرسول، يدخل المصلون المسجد في الشام ويصلون القرآن بين يدي من يدعي أنه خليفة النبي وهو يصلي القرآن صلاة مقلوبة:

إذا ما جئت ربك يوم حشر   فقل يا رب خرقني الوليد...

لماذا لم ترفض الأمة المصلية رجلاً يمثلها وهو يرفض دينها؟.

واقع الإمامة:

والإمامة؟ وهي ترتيب وتخطيط لعدة أجيال قادمة بعهودها المرتقبة والمركزة على نمو ذهني ـ فكري روحي، تحققه العلوم والثقافات، بالتدرجات الحضارية، يتعهدها أئمة منتدبون، ومدربون برسالة النبي الذي هو روح الأمة، وشوقها الهاجع فيها منذ مئات الحقب، وهو الذي التمَعَ فيه الوحي، وانبجست من بين شفتيه حروف الرسالة ـ ولم يفصلها ـ بتاتاً عن توضيب الإمامة توضيباً تعهدياً لضبط شؤون الأمة القاصرة والوارثة كل مهانات الأمس، والغائبة بين طيات جاهلية؟.

لقد رتب النبي الكريم جداراً من وقاية ودراية، وحصنه بركن متين وحريز ولم يكن له اسم غير عليّ، ومنذ زمن طويل وهو يشدد إليه الوصاية، ويوجه إليه أُصبع الاشارة.... أما الزعماء والنقباء البارزون، فإنهم أهملوا الوصاية، وتجاهلوا الاشارة، وموهوا على الأمة كلها بأنهم هم أركان الأمس، وأركان الغد، وأركان الادارة... ولم يحصل الاذعان، وحصل العصيان، فلماذا؟.

واقع السياسة:

إنَّ السياسة فن يتناول الأمة في جميع شؤونها المادية والروحية على السواء، ليكون لها انضباط، ونمو، وتطور... ولكن الجزيرة لم تتقن هذا الفن، وبقيت كل معالجاتها السياسية قبلية بدائية، لا تعرف كيف تهتم بقضية الفرد وانمائه اجتماعياً، حتى جاءتها الرسالة تبشرها بالحق، والعدل، والمساواة، واعتبار الفرد قيمة إنسانية ـ اجتماعية، لا يتميز عن غيره إلا بنسبة ما تطيبه التقوى.

هكذا انضبطت السياسة، وتوحدت الأحكام، واتخذت توجيهها الاجتماعيَّ العادل، تحت ريادة مَنْ سنَّ لها كلَّ الشرائع، وتعهَّدَهَا بكل المقومات النابعة من حاجات الأمة ومصالحها بالذات. ولم ينس هذا المشترع العظيم أن يشمل الغد باهتمامات بعيدة النظر، تجعله مستمراً في التحقيق المتصاعد بالأمة إلى كل حيِّزٍ حضاريٍّ مرموق.

لقد انضبط الغد بخطٍّ من حُكْمٍ موجَّه، يضمنُ استقرار الأمة واستمراريَّتَهَا في النشوء المنضبط على الصراط المستقيم، ولقد ثبَّت الإمامة على ركنٍ كعليٍّ، وكانت الوجبة المثالية التي سيتلقفها الغد، ويبذلها على الأمة صواباً وهداية.

إن كل ما كان مبنيَّاً على جهد النبي، ومرويّاً بعرق النبي، ومرئيَّاً ببعد نظر النبي، تناولته سقيفة بني ساعدة ومرغته بالهذيان، ورمته في زواريب يثرب، كأنه خيالٌ حَلِمَ به النبي وهو يغفو تحت سقف آخر، تَجَمَّعَ فيه كل أهل البيت.

لقد حصل كل هذا... فلماذا؟.

واقع أهل البيت:

إنه الواقع الجليل ـ جلَّلَتْهُمْ به الرفقةُ الحميمةُ، والقرابةُ الملتهبة باللواعج المطهرة بالحب، والصدق، والحدب الكبير... يَا للروابط المتينة، تجمعها الأرض في قوالب الطين، وتسكب فيها السماء أثيراً من ملكوت، فإذا الوجود كله إنسان يحلم بالنعمى التي تطير به إلى جنان.

وأهل البيت ـ بيت النبي ـ هم الذين ظلَّلَهُمْ ـ والنبيَّ ـ سقفٌ واحد، ما اندمجت جذوعه إلا بشوقٍ واحدٍ مضمَّخٍ بطهرٍ أطْيَبَ من فتيت المسك ـ إنهم أربعة جمعهم النبي في حوضه، ومحضهم حباً يعيشون به ولا يموتون. لقد دل إليهم بأنهم المطهرون من كل رجس، وأن الأمة كلها بمثل هذا الطهر فلتبن بيوتَها، واعمارَهَا، وأجيالَها... وإن لم تفعل فالرجس يعميها.

واغمض النبي عينيه تاركاً أهل بيته ـ من بعده ـ وعداً للأمة، وذكراً، وذخراً... ولكن السقيفة التي راحت تسهر ليلاً حزيناً على غياب النبي، صاغت قرارَهَا قبل أن تغيب نجمة الصبح:

ـ لن نسمح لأحد من أهل البيت بالوصول إلى كرسي زعامة:
لن يَتَشَهَّى طالبيٌّ كرسيَّ زعامة قبل أن نسقيَهُ نقطة سُمّ:
أما الخلافة فهي لنا... حتى ولو كنا رجسين...
أما الإمامة ـ حتى ولو كانوا مطهَّرين ـ فلتبقَ لهم مقهورين:
فليكتفوا بالإمامة... على أن يبقوا صامتين:

إنه تهديد صاغته ونفذته السقيفة... أما الأمة فقد ألهيت بالقبلية... أما الإمامة فلم ينجها ـ لا القهر ولا الصمت ـ وبقي السم يندسُّ في ماء شرابها... وبعد مئة سنةٍ لا نزالُ نسأل: لماذا هذا الواقع الراهن لا يتبدَّلُ ولا يتغيَّر؟.

من هذا الاستعراض الذي تم الجواب عليه مشروحاً شرحاً كافياً في متن هذا الكتاب، بنى إمامنا الباقر تصميمه الحازم وهو يقول:

ـ أية قيمة للرسالة، أو بالأحرى، للإمامة؟ واثنتاهما في عملية واحدة في التساند، والتكامل، من أجل الوصول إلى الأمة ورفع مستواها المادي والروحي على السواء؟.

أيُّ شيء هي الرسالة، إن لم تكن هي ذاتها الأمة، وقد خلعت قميصها البالي واستبدلته بالجديد النظيف؟.

أنّ يحاول الهرمون استبقاءها في رثاثتها المعهودة فتلك ـ لعمري ـ رثاثة أخرى يأباها منطقُ الحياة وجوهرُهَا النامي بحقيقة الإنسان.

إن الأمة ـ في نظرة الرسالة ـ هي الخلية الكبرى لكل مجتمع من مجتمعات الإنسان، وهي البوتقة الصالحة في مداها الموسَّع بالتفاعلات الإنسانية النابضة بحقائق الوجود، لانماء المواهب، والمدارك، والحقائق، وكلها هبات عقلية ـ ذهنية ـ روحية، تلوِّنُ حضارات الإنسان، وتزيِّنُهَا بصفاتٍ خُلقية مبرورة، تخشِّع المجتمع كله في حضرة إله الخلق، وتجعله مبدعاً في كل ما ينتج، وعفيفاً في كل ما يشتاق إليه، ومؤمناً بكل ما هو حق، وعدل، وصفاء....

الأمة الأمة، تقول الرسالة بكل ما فيها من حق وحدب، ورجاء..
علِّموها ـ ثقِّفوها ـ وسِّعوها بالفهم ـ حتى تكون لكم حصناً ومجَنّاً...

وإلا فإنها قطعة رثة من قميص عتيق، تهلهلها ريح جاهلية،
وتشويها هبَّات السموم...

أيَّ شيء نترجَّى من الواقع الراهن ـ يتابع هجسه الإمام الباقر ـ طالما أنّ الإمامة لم تتمكن من سد الثغرات المميتة، وطالما لا يزال القميص

الرث على عري الأمة، تزيد من رثاثته فئة التقليديين المستنقعين في بؤرة جاهلية... ستبقى الرسالة هكذا محجوزة ضمن الغلاف. وستستمر الأمة هاجعةً أسيرة عريها في زوايا الكهوف. أما القبائل المشرورة كلها من مكة إلى سائر الحرات والأحقاف، فليس لها إلا أن تتابع اجترار السلاسل في أقدامها المطلية بالرماد...

تبقى الإمامة ـ وقميصُهَا عفافٌ طالبيّ ـ وازارُهَا رسالةٌ نبوية، ومطلبُهَا شوقٌ علويّ ـ بانتظار أن تنتصر لها الأمة وتنجيها من التهديد المبيد...

ولكن الأمة لن تأتي إلى النصرة المرجوة... وأولاً وآخراً هي المرجوة ـ ما لم تَسْتَعِنْ الإمامة المعزولةُ إلى زوايا الصمت، بعزم وحيد لا مناص من اعتماده، وهو تزويد الأمة بعلم، وسيع، مجرد، يثقفها رويداً رويداً، وهو الذي سيرسخها في ادراك ما ينجيها من العبوديات، وهو الذي سينميها إنساناً واعياً: ما هو الحق فيهيم به، وما هو الخير فيشتدُّ إليه، وما هو الصوابُ فيعانقُهُ ارتياضاً، وما هو الشر فيرفُضهُ امتعاضاً...

على كل ذلك كان رهان الإمام، وما علينا إلا أن نراه نهَّاجاً كبيراً ينشر علماً، ويوسع جامعة.

النهج

لم يكن نهج الإمام إلا مركزاً تركيزاً متيناً على اقتناعه الصامد بأن العلم ـ وحده ـ هو الذي يسير بالأمة إلى مراتب التقدم والفلاح. وكان الإمام يعرف تمام المعرفة، أنَّ العلم لن يقوم بهذه المعجزات إلا عندما يستحيل ـ في المجتمع ـ ثقافةً حيةً، ويقيناً فاعلاً، وبحبوحةً من حق، وخير، ومعروف، إنه ـ ساعتئذٍ ـ تلك الطاقة العقلية ـ الذهنية ـ النفسية ـ الروحية التي حلم جده الرسول بايصال أمته إلى اغتمارٍ بها، لتكون أمة هادية لكل أمم الأرض.

سيكون نهج الإمام محصوراً في مواردها ومصادرها، وهكذا سيكون التجرد للعلم من دون أن يهتم بأي غرض سواه، اقتناعاً منه، بأن لكل غرض من أغراض الحياة اختصاصاً معيَّناً يقوم به حتى يوفيه حقه من الاتقان، واقتناعاً منه ـ أيضاً ـ بأن مطلق غرض من الأغراض، لن يصيبه حظ سعيد إلا إذا نقحه العلم، وزينه بالفهم الصحيح.

سيكون للعلم أن يفهمنا: لماذا نأكل، ولماذا نشرب، ولماذا نمشي فوق الدروب ـ وإن يعلمنا كيف نزرع، وكيف نجني مواسمنا، ومتى علينا أن نخزنها في اهراءات ـ وهو الذي يعلمنا كيف نصنع الاهراءات ـ أما الكراسي التي يجلس فوق متونها الحاكمون، فالعلم ذاته هو الذي يرشدهم إلى تنجيدها بزهر البيلسان، وأن لا يسقيها إلا عصير الحق، والعدل، وذوب التقى، وزلالٌ من كوثر الجنان.

سيشرح العلم للأمة وللحاكمين: أنّ الضمير في الإنسان وعلى الأخص في طوايا الحاكمين، هو العنصر الكمين فيه، وهو النجيُّ النجي، لا ينعشه ويحييه، ويبهيه إلا الحق المعصور في لب الإنسان، والتقى المسكوب في عبه، والزلال المصفَّى في رقعة الوجدان.

هكذا هو النهج في أنماط الإمام، تزيَّنَ به صريحاً أمام الأمة حتى تشاهده ـ يوماً بعد يوم ـ يقدم لها ما يثقفها فتنجلي به: عقلاً، وحساً، وعيناً، وأذناً... واختال به نزيهاً ـ تحت عين الحاكم المتولي، حتى يراه رابضاً فوق منبر جامعي، يعالج العلوم كلها، ويوضحها بالشرح، وبحقيقة التجرد، فيرتاح باله بأن السياسة باقية له ـ وحده ـ لا يشاركه بها، لا المزاحم، ولا المتجنِّي، بل المتمنِّي على الريح السماوية أن تنسلَّ، مع خطوات الدهر ـ نسمةً نسمةً ـ إلى الأذهان، فتزهو العقول، وتسلم الأبدان، وتستقيم الأمة على ميزانٍ يرجِّحُهَا: ثقافةً، ونظارةً، ونقاء وجدان.

من هنا يكون ابتعاد الإمام عن حقول السياسة، وعن الالتجاء إلى محاولات معدَّدة الأشكال، ومنوَّعة الأحجام، للوصول إلى ملاقطها، دليلاً قاطعاً على مجافاتها وقلة احترامها، باعتبارها ـ مع المتلقطين بها ـ غير صالحة لادارة أمَّةٍ واعيةٍ ومستوعبةً كلَّ مصالحها... فالحكم فن من الفنون العالية، ركيزته الحب، والفهم، والحدبُ على الأمة من خلال الاطلاع، والاختصاص، والممارسات الحكيمة، هذا ما لم يتصف به مطلق زعيمٍ ادَّعى أنه خليفة نبي المسلمين.

أما الاطلاع، والاختصاص، فهما الطاقتان الهزيلاتان في دوائر الأمة، هزالاً بائساً، ولن يجعلهما حلقتين متينتين في سلسلة الحكم القابض على مقدرات أمة، إلا العلم الموزع المعرفة على المطلعين،

والمتخصصين، والمتمرسين في معالجات القضايا المتعلقة بصميم المجتمع الإنساني العظيم.

هكذا يتضح نهج الإمام وهو يقرر جازماً: إذا كان العلم الوسيع هو المقرر بناء الأمة، عبر بناء كل فرد من أفرادها الذين هم خيطانها، وحبالها، وأوتادها... وعبر بناء كل حاكم من حكامها الذين هم المدبرون، والسائسون، والموجهون المستنيرون والصادقون... أليس من الضرورة الماسة والقاطعة، أن يتجرد لخدمة العلم، وتركيزه، وتوسيعه، والإلمام به: أولياءُ متخصصون، ينقطعون إليه، ويتنسكون في محرابه، ويفتحون له الأبواب، وكلَّ الأشرعة، لأنه الطاقة العظيمة والوحيدة التي تطوق العقل بأسلاك النور، وترفعه إلى مهابات سماوية؟.

أليست الأمة العظيمة، في مجتمعها الإنساني العظيم، هي الدائرة العظيمة التي لا يبني لها الأبراجَ العالية إلا العلمُ الرفيع؟.

إنه تقرير النهج: بأن الإمام الباقر هو المتخلي عن كل شيء من متاع الدنيا، وهو المنضوي إلى مسجد جده الرسول، وهو الموسع مدارجه السنية في يثرب، وهو الذي جعلها مدارج جامعة.

الجامعة

منذ أن بني المسجد في يثرب وهو جامعة لأهل البيت، يفتحون أبوابه لجميع المصلين بين يدي نبيهم الرسول، ومثلما كان جامعة للصلاة، كان أيضاً زوايا وردهات لأخذ الدروس، والشروحات والأحاديث، والاستفسارات، أكان ذلك على عهد الرسول أم فيما بعد مع الإمام علي، والإمام الحسن، والإمام الحسين.

لقد كان المسجد في المبتدأ مقاماً للصلاة، ثم خليطاً من عدة أجنحة: للدروس البسيطة، أو للتبسطات الفلسفية، أو للاستفسارات الفقهية، أو للتداول في الشؤون الفكرية والسياسية، إلى ما هنالك من مستلزمات حياتية ـ تربوية بدأ اليثربيون يشعرون أنهم بحاجة إليها.

ولكن الأئمة الثلاثة الأولين ما توفرت لهم الهنيهات المستقرة حتى يركزوا ردهات المسجد على الخطط الموزونة والمرسومة، فكثيراً ما ألهي الإمام علي عن سكب طاقاته العلمية والفكرية والنهجية في صدور طلابه المريدين الذين كانوا ينتظرونه في ردهات المسجد. يكفيه من إهْدَار طاقاته الفكرية والروحية والجسدية، وحجبها عن زوايا المسجد: يوم الجمل وأيام النهروان. أو السفسطات والمماحكات التي حبلت بها مومياء صفين... ألا يكفيه ابعاد عن خطوطه الإمامية البعيدة الرؤية إلى مسافات الغد انسحابه إلى الكوفة لاستجماع قواه المبعثرة بين يثرب يخنقها زفير

الصمت، ومكة يعود إليها لهاث من صدر هبل... وهكذا، رويداً رويداً، طاله ابن ملجم بظبة مسموفة...

وكذلك جاء القاصدون تمويه الخطوط فلفلفوا الإمام الحسن بخيانة قائد جيشه عبيدالله بن العباس، فعكف الإمام على الصمت، ولم يلجأ إلى عسكرة القبائل صوناً لمقدرات الأمة من الانهيار بهدر الدم، ورجع إلى يثرب يفتح في مسجدها غرفة يدرس فيها فلسفته المقهورة... وقبل أن يَلْمَعَ في الغرفة تلك نقشٌ جامعي، تسربت إلى كوبه نقطة سم يبسته على فراشه في زاوية البيت...

الحسين وحده ما أراد أن يدخل المسجد إلا دخول الفاتحين، وهكذا لم يطق أن يقدم دروسه ضمن غرف لها جدران، بل في العراء العريض راح يلقيها حتى يتلقفها الوسيعان: المكان والزمان، وحتى يكون الرفض الذي هو العنفوان، مادة اكسيرية تتلقح بها كل الفروع العلمية، بما فيها الكيميا أم المعادلات، ولب السر في جميع التحويلات، والتطويرات، والتخميرات.

لقد كان لاستشهاد الحسين فعله التخميري في نفس الإمام علي بن الحسين: تناوله حزناً عنيفاً، راح يفيض على كل شعاب روحه، ثم تحول ـ بقوة ذلك الاكسير ـ إلى مدى آخر من صلوات بكر يزدان بها الرضوان بأدب يزهي النفس بانتاج نهجي يعلم الصبر على المكاره وهو يرذلها في دوائر الحاكمين تصنفهم كواسر من أبالسة مرذولين.

هنالك شيء له قيمة الترجيح، أظنه قد عجل في أحداث التحويلات النفسية التي تحلى بها الإمام علي بن الحسين، وهي احتكاكه بابنه محمد الباقر، وبالانصاري جابر ابن عبدالله، وهما يرجوانه ـ بحرارة ـ أن يذيب حزنه على أبيه الحسين في دائرة الاهتمام بأمر الرعية، فيكون له ـ من ذلك ـ مرضاة الله في خضوع لمشيئته، وتلبية ماسة للقيام بمهام

الإمامة... إن هذا الرجاء المزدوج نجده وارداً في بعض صفحات من هذا الكتاب، وهو الذي لباه الإمام، وراح ينشىء أدب الأدعية التي وصفته بزين العابدين ـ إن في بسمته أيضاً ـ غلالةً من حزن لا تزال موصوفة. ولكن بريقاً آخر كان يسوح في عينيه ـ من بُعْدٍ إلى بعدٍ ـ كلما حوله صوب ابنه محمد، وهو جالس القرفصاء ـ على الحصير ـ بين طلاب راحوا يملأون قاعة الدرس في المسجد المرحب بالإمام العائد ـ ولو من كربلاء ـ حتى يوسع بالعلم النفيس جميع ردهاته.

لم يبلغ الفتى محمد الباقر السابعة عشرة من عمره ـ كما أتوقع ـ حتى اتسعت في المسجد زاوية أخرى من زواياه المقدسة، راح الفتى يمسحها بعلم الحساب وعلم الجغرافية البطليموسية، وبشيء من علوم الفيزيا، والميكانيك، وبشذرات عجيبة من علوم الكيميا... تاركاً لأبيه الإمام التبسط بالفلسفة، والحديث، والفقه، ونباهة التفسير.

لقد أدرك ـ ملياً ـ الإمام زين العابدين، أنّ العلوم هي نفحة سنية من نفحات الرسول، أوحى إلى حفيده بأن يفجرها على الأمة المحرومة من عطاياها، بعد أن جردوها من جدواها بتعطيل فعل الإمامة التي شدها الرسول ـ خصيصاً ـ لافاضتها على الأمة نوراً وهداية.

على مدى عقدين تقريباً، أضحى المسجد أوسع من معهد تدريسي عادي، لقد راح يغص بالطلاب الوافدين من مكة، وواسط، واليمن، والكوفة، وكل الحجاز، لقد زاره في الفترة الأخيرة وال من الولاة الموصوفين بالعلم والتقوى، اسمه عمر بن عبدالعزيز، فأدهشه ما رآه في المسجد من علم، وتخصص، وتجرد، وتفان عفيف، فأمر بتوسيع مدارجه، بحيث أضحت رقعة أرضه تنوف عن أربعين ألف ذراع. لقد نال الصدقُ، والاخلاصُ، ووضوحُ الرؤيا، جائزةً وسعت المسجد من معهد عادي إلى جامعة... وهكذا أغمض الإمام زين العابدين عينين قريرتين وهو يترك الجامعة في عهدة من ركزها تركيزاً علمياً صادق التوجيه باسم أهل البيت.

وعلى مدى عقدين تلوا غياب الإمام زين العابدين، والإمام يسخو على الجامعة يتفتيشه الدؤوب والمخلص عن كل مادة علمية يعرفها العصر: كالطب، والهندسة، والتاريخ، ورصد النجوم، والتعدين، وكشف المساحات... فإنها كلها أصبحت في خزائن الجامعة، يدرسها - أولاً - ثم يشرحها هو بذاته لطلابه المريدين والمتشوقين.

كيف اتفق - يقول السؤال المتحرج - للعهد الذي لم ينج.من اثم وال اسمه يزيد، أن ينجو من سلسلة ولاة ما طاب منهم لا اثنان على مدى يقارب الأربعين سنة، وهما معاوية بن يزيد يرفض الحكم موروثاً عن أبيه الخليع... وعمر بن عبد العزيز، ليس له من جدوده المروانيين، لا خيط باطل كمروان بن الحكم، ولا خلاعة تفرد بها يزيد بن عبد الملك، شارب الطلى، وشارب الدماء، ومولي الحجاج على جماجم العباد... بل تفرد بصنج من ذهب، نقش عليه صلاة تقية، وسيرة ذكية، عرفت الحق، ونادت بالصواب... أما الباقون فحلقات من المروانيين، ما حكموا، بل ظلموا، وفحشوا، وانتهوا ببخيل أحول، هو هشام بن عبد الملك...

بديهي أن يكون الجواب على السؤال المتحرج مشروحاً بهذا الشكل: إن العهد مع الإمام زين العابدين هو المتكامل بعهد الابن الإمام الباقر، وهو العهد الواحد الذي طالت اقامته في يثرب، وتوضحت معالمه ورؤاه في جامعة المسجد. لم يكن له إلا ترسيخ العلم من مأرب - لأنه هو الذي يرسخ ثقافة الأمة، ويوضح لها الخطوط الرشيدة، وعندئذٍ فالحاكم النبيل هو الذي يغطي الساحة لأن الأمة تكون قد أصبحت تعرف كيف ترفضه إن لم يكن نبيلاً.

لقد تبنى العهد المتلملم على ذاته قضية بناء الأمة بقوتها الذاتية المتدرجة إليها من محصلاتها الثقافية، ولن يكون لها ذلك بين مساء

وصباح، بل هو ابتداء من لحظة الصدق وامتداد ـ مع التوافرالحي ـ إلى قبضة من عقود السنين. . . وهكذا فلينم الحاكمون قريري العيون فوق كراسيهم، لأن العهد لا يطمع بحكم لم تنله بعد هاتيك الثقافة. . .

لقد قدم العهد ضمانة للحاكمين ـ في عدة مناسبات متتالية ـ تقول لهم: ليس للعهد مطمع بحكم يحضره الحقد وأخذ الثأر بصفوف قبلية، وهذا ما كان لون واقعة الحرة في يثرب، ولون انتفاضة التوابين في البصرة والكوفة، وحتى لون الثورة التي توسعت وانتصرت بقيادة المختار الثقفي. . . فإنها كلها ـ بلا استثناء ـ لم يخطط لها الإمام زين العابدين ولم يتصل بها بتاتاً ذلك الرائي الآخر المؤسس فروع العلم في المسجد، لأن العلم لم يخطط لها وعياً مثقفاً يشمل الأمة ويعبر عن رفضها حكماً يجزىء الأمة قبليات قبليات، ولا يوحدها فهماً ووعياً، وتقريراً مصيرياً يعتز بها الغد المنور.

صحيح إن ذلك كان شكلاً من تقيّة قام بها العهد لتحاشي تعدي الحاكمين، ولكنه ـ بالوقت ذاته ـ لم يكن كرمى لعيونهم المعمية بمجد كاذب، ينيلهم الثراء طافحاً في الغباء. . . فلينالوا الآن ثراءهم، وليبق لهم ـ إذا أرادوا ـ فيض الغباء، على أمل أن يتركوا للعهد فسحة التركيز في جامعة المسجد، وغداً، أو بعد غد يشرق يوم آخر على الأمة، تأخذ منه نضجاً في قدورها فتفرقة طعاماً على الحاكمين، تتثقف بها سياساتهم، وتنجلي عيونهم من الغباء الذي تثيره أقدام الجهل مع أقدام القبلية.

جل ما كان يتمناه الإمام الباقر اطالة عمر الجامعة حتى يمتن التركيز وتتوضح الاشارات إليها، فيكثر طلابها ويكونون نقلة علمٍ، وَحَمَلَةَ أقلامٍ، وأساتذة مدارس وجامعات تحتاجهم الأمة موزعين فوق رحابها.

جليل أن تنشأ جامعة في يثرب، ولكن الأجلَّ الأجلَّ، أن تتعانق المدارس والجامعات في كل مدن الأمة، وفوق كل مجالاتها المترقبة يقظة

الفكر، وحركة العمران، وتلك هي الانتصارات الزاحفة نحو فذوذية التحقيق في مؤداه العلمي ـ الثقافي المرتجى. إن العلم الصغير والعلم الكبير هما في جناحيهما المتلازمين في عملية نقل الفرد إلى عمارة الأمة، ونقل الأمة إلى القيمة الرفيعة المدافعة عن سلامة الفرد في اعتباره حجراً كبيراً في قلعة سورها.

لم يكن الإمام الباقر متخوفاً من يد الحكم تعرقل مسعاه، فاحترازه من الحكم قد بناه على طمأنته بأن السياسة ليست مطلقاً من مبتغاه، وهذا هو الذي كان يرضي الحكم في ذلك الحين فيغل يده عن الأذية. ثم إن الإمام الباقر كان يرى أن الحاكم في ذلك الوقت بالذات، لم يكن له أن يتلهى بفتح الثغرات ـ لا سيما وان الجو مشحون بالنقمة عليه ـ يكفيه ما يدور في الخفاء من استعدادات انتفاضية انقلابية، يحضرها في الجانب القبلي الآخر، بنو العباس. . .

ولكن الإمام الباقر كان يرى أيضاً ـ بحدسه المصيب وعلمه الموزون ـ أنَّ الفئتين المالئتين ساحات الأمة، سيكون لهما من التحفظ والترقب ما يجعلهما إلى وقت طويل ـ رهناء انتظار الساعة الملائمة لتحقيق الغلبة. . . إلى أن يتم ذلك يكون له ـ هو الإمام ـ تركيز آخر، تنطلق به الجامعة إلى تحقيقٍ هي الأمة بحاجة إليه في ابتعاد الفئتين المتعاديتين عن المسعى السليم.

أما بنو العباس، فإن الإمام يتمنى لو يصدقون إذا تيسر لهم الحكم، وتسلموا مقاليده، وأن يعودوا إلى الاذعان ويطيعوا رغبات الرسول في تمكين خط الإمامة من الاطلاع بمهماته المرسومة ـ لكانت الأمة هي الواصلة سريعاً إلى تعميم العلم، واعتباره ـ كالنور والهواء ـ هبة من الله لعباده، وحاجة كالماء والطعام ـ لقيام الحياة بأود أبنائها.

ولكن الإمام كان خفيف التفاؤل بهم لأنهم لا يسعون إلى الحكم إلاّ

بخط قبلي تقليدي عتيق، لا بنهج رسالي واضح المعالم وبارز الخطوط.... إنهم يدجلون ـعلى ما يبدو ـ ويموهون، ولن يكون الدجالون من الصادقين.

هذا هوالجواب الكامل على السؤال المتحرِّج... ولكن الإمام لم يسلم من نقطة سم، وجهتها التهمة إلى هشام بن عبد الملك... بعد أن فجر العلم، على مدى ثمانية وخمسين عاماً تاركاً للأمة ولابنه الإمام جعفر الصادق متابعة العمل الكبير الذي لم تشهد الأمة تصميماً مثله منذ ذلك الوقت إلى مثل هذا الحين.

سيبقى الإمام الباقر فذاً في تفجيره العلوم، واحاطة مثلى بمؤديات لا تقوم بغيرها نهضة من نهضات الأمم.

الاحاطة

سيكون لنا وقوف بالغ الاحترام، يخشعنا في حضرة الإمام معبّئاً كل مواهبه باحاطة علمية وفكرية وروحية منوعة المواد، ومرجحة الأوزان، وكلها طاقات مجهدة، لا يتناول الفرد طاقة واحدة منها إلا ويُجهده بها ولها التفرغ والاختصاص. أما إمامنا الكبير فقد تناولها مرزومة في باقة واحدة ـ باسم العلم ـ وراح يستجليها طاقة طاقة، ويستدرجها لغزاً لغزاً، بالدرس والتنقيب، حتى إذا ما استسلمت إليه الواحدة تلو الأخرى، هب إلى تلاميذه يشرحها لهم: بشفتيه، وعينيه، وبنانات كفيه العفيفتين.

هكذا تناول مادة الحساب، والهندسة، والاقتصاد، ومادة الفيزياء، والكيميا، ومطالع النجوم، وعلم الجغرافيا، والتاريخ، ودوران الأفلاك، وبناء الأجسام، والطبابة، والمداوة ـ وإلى معالجة الفكر والروح بالفلسفة، وما يتفرع منها من علم فقهٍ، وعلمِ حديث، وعلم أصول واجتهاد.

على كل هذه العلوم وهذه الأبحاث، بنى ووسع جامعته في يثرب، مجهداً نفسه ـ وحده ـ بالدرس والشرح والتلقين، مع الساعات الأولى للفجر، ومع تراسلات أشعة البدر ما زال مهلاً ومضيئاً، على مدار خمسين سنة من عمره القصير.

لقد ناف عدد تلاميذه على أربعة آلاف من المتخصصين البارزين في علم الفقه، وعلم الحديث، وعلم الأصول، شأن أبان بن تغلب، وزرارة

بن أعين، ومحمد بن مسلم. . . مع التنويه الكبير بما أحرزته الجامعة من تأسيس متين في علم الكيميا، أم المعادلات العجيبة، مما تفرد به في حقل الاختصاص، ابنه الإمام جعفر الصادق مع تلميذه النابغة جابر بن حيان الذي عكف على اجهاد المعادلات علَّهَا تستجيب وتتوصل إلى إلهاب المعادن الرخيصة، وتحولها إلى لمعان ذهبي يخطف الأبصار.

هكذا عرف العلماء في الغرب قيمة مدرسة الإمام الصادق الموروثة عن أبيه الإمام الباقر، وقدموا دراسة وافية عنه، ووصفوا الجامعة في يثرب بأنها نشاطٌ باقريٌّ عزَّ نظيرُه في تلك الأيام الخالية من النشاطات العلمية الراجحة التحقيق، لقد تَرْجَمَ إلى العربية هذا الكتاب النفيس بشهادته للإمام الصادق وأبيه الإمام الباقر، الدكتور نور الدين آل علي، وفيه توضيح وافٍ لما أقول.

إن جهود الإمام الباقر ـ كما يبدو وبوضوح ـ قد جعلته ملمّاً بكل مادة علمية أخذها على عاتقه بالدرس والاحاطة، ثم بالشرح والتعليم ولقد أكسبته احاطة بها، كأنه المتفرغ والمتخصص في كل واحدة منها على انفراد.

ولكن هذه الاحاطة ـ بدورها ـ لم تكن غرضاً يشبعه، ويكتفي به، إذ يصل إليه، بل إنه كان يسعى إليه كوسيلة قائمة بذاتها، تبتدىء الآن به، كما كان مخططاً أن تبتدىء بجده الإمام علي، ثم عندما يصل الدور إليه ـ تمر عليه فتتكامل استئنافاً لمؤداها، إلى أن يتناولها ـ من بعده ـ بذات المفعول وبذات الإيمان، من تصل إليه لمتابعة الخط الإماميّ الذي عينه جده الرسول، ونوره بالمهدي المنتظر.

كل احاطة علمية فردية ـ مهما تبلغ دائرة تحصيلها الذاتي من عمق واتساع ـ تبق حسيرة مخنوقة، ما لم يتسع بها الشمول إلى المدى الجماعي، وهي تتكيف به اندماجاً تفاعلياً مستغرقاً في حقيقة الذات، وفي

حقيقة التعبير عن متطلباتٍ تلحُّ بها حاجاتُ الحياة في المجتمع الإنساني. . .

والعلم ذاته هو حاجة اجتماعية يفرض تحقيقها المجتمع ذاته، في استدعاء الفرد للقيام بها وتحريكها فاعلة ملبية. ولن تفعل إن لم تشمل الكثرة الساحقة في تأليفها الندوة الاجتماعية الناشطة، وعندئذٍ فالعلم هو المجتمع المحقق ذاته بذاته، بتحريض ناتج من ارداته المشتاقة، وهو ـ ساعتئذٍ ـ تلبية صادقة تتحول تلقائياً إلى تدرج ثقافي يتمرس به المجتمع، وهو يرتب أوَدَ معاشه في محيطه المتلازم به شأناً مصيرياً ـ أنانياً ـ إنمائياً، يتميز بعز ورفاهية تعيِّنُ قدرَهَا تلك الثقافة الناتجة من التضافر العلمي، ومن مقدار تمكن المجتمع من تعميمه وتنشيطه فاعلاً فعله المتكامل.

ولا يفعل العلم فعله المتكامل إلا في المجتمع المندمج به اندماجاً، عضوياً، وهكذا هو ـ في المجتمع ـ من بيئته، وحاجاته، ومناخاته، وجميع شؤونه الفكرية، والروحية، والحياتية: فهو فلسفتُه، وأدبُهُ، وسياستُهُ، وجغرافيته، وزراعاته، وصناعاته، وتجاراته، ونهجه في التصرف. . . وكلها إلى تطوير، وتصويب، وتعديل، وتنسيقٍ، وتثقيف، وبالتالي إلى تنمية إنسانية وحضارية ترتفع به من سوية إلى سوية أخرى، لا تحققها إلا الثقافات الصحيحة، والمثاليات المرتفعة بقيمة الإنسان.

والعلم الصحيح المركز على حاجات الإنسان في مجتمعه القائم به، هو التماسٌ صادقُ التعبير، وإلا فهو عنجهية فردية تنتج غروراً في النفس مُتقَزِّماً في ادعائه، ولا ينتج ـ أبداً ـ ثقافة مرجوة.

وليست الثقافات ـ في مطلق الحال ـ أقَلَّ من انتاجٍ جماعي، يتهذب به الفرد الذي يستدعيه المجتمع الواعي إلى دوائره المحصنة. . . سيكون المجتمع بنَّاء الفرد، وسيكون الفرد ـ أبداً ـ هو المستدعى إلى انشاء القلعة التي تمتن به، وبها يعتز.

ذلك كله هو مبتغى الإمام الباقر، في انباثقه من أشواق جده الرسول، ومن واقع الأمة التي تستدعيه ـ بكل ما هو واقع راهن فيها ـ إلى انتفاضات هادئة ورصينة، تمشي كما يمشي النور إلى بري الظلمات، من دون تعثر بالوعورات التي هي حفر في الدروب يغطيها الهشيم.

العلم الكامل وحده ـ هو الطاقة الفاعلة في احداث الانتفاضات الهادئة والمنتصرة على البؤس، والظلم، والفقر، والجهل، والسياسات الهمجية... والعلم المتكامل هو المتمادي في نضجه التخميري الكامن في معادلاته الثقافية، وهي التي تتناول المجتمع في تهذيب خلاياه، وتنظيفه من هشيم الريب.

هنا محط آمال الإمام الباقر: ابتداءٌ مصمَّمٌ على تركيز العلم، ونشره، وتعميمه... لأن الأمة هي بحاجة إليه منشوراً، ومعمما، وفاعلاً فيها فعل الخمير.

فإذا صحت الآمال، واستقامت لها الأشواق في التنفيذ المرجَّى، وحسب الخطط المرسومة، فالأمة هي على الدرب الأمين، تنظفه ـ رويداً رويداً ـ ثقافاتُهَا من تراكمات الهشيم.

أما إذا تعكرت السماء وادلهمت بها أعاصير... فإن على الشاطىء ما هو مغروز كعمود منارة، يشير إلى جامعة لا يتمكن من محوها الدهر... إنها في يثرب تذكر الأمة: بأنها لن تنال من الفلاح شأوا، ما لم تنشر في كل رحب من رحابها جامعة تغصُّ بالعلم والطلاب.

الإمام الباقر هو الضوء الكبير المنثور
فوق السارية.
وهو عميد الجامعة
وإنه القدوة...
وإنه نجي الرسول..

استشارة المراجع

تاريخ الطبري لأبي جعفر الطبري
تاريخ مروج الذهب للمسعودي.
تاريخ ابن خلدون لابن خلدون
أعيان الشيعة للإمام السيد محسن الأمين
زين العابدين لعبد الرزاق الموسوي المقرم
الإمام محمد الباقر لباقر شريف القرشي
سيرة الأئمة الاثني عشر لهاشم معروف الحسني.



للمؤلف

الإمام علي نبراس ومتراس
فاطمة الزهراء وتر في غمد
محمد شاطىء وسحاب
يسوع أبد الإنسان
لبنان على نزيف خواصره
جبران خليل جبران في مداره الواسع مسلسل تلفزيوني
ميّ زيادة في بحر من ظماء ـ مسلسل تلفزيوني
أمل ويأس
الجذور
الإمام الحسن الكوثر المهدور
الإمام الحسين في حلة البرفير
ميخائيل نعيمة بيدر مفطوم
جوزة الدب ـ قصة
غزالة قاع الرّيم ـ قصة
الإمام زين العابدين عنقود مرصع
محاكمة هارون الرشيد ـ مسرحية مخطوطة
المهلب بن أبي صفرة ـ مسلسل تلفزيوني مخطوط
الإمام الباقر نجيّ الرسول



المحتويات



